رواية

كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس

سليم بركات

محاورةُ خارتِيْمَاس وسُوْسينو

«هل عثرتَ على النصف الآخر من حلمي، أيها الهوداهوس سوسينو؟»، قال خارتيماس الأشقر العُرْف، وأصْدَرَ صهيلاً خافتاً من حنجرته ـ حنجرةِ الكائنِ المُحْتَلَسِ الشكل من نصفِ إنسانٍ ونصف حصان.

تنهَّد سوسينو. حرَّك في الهواءِ دوائرَ القلق الخصب كبذور اليقطين حول بِرَك المياه: «لي ستة أيام أَغمضُ عينيَّ من الليل حتى الظهيرة، فلا يتجلَّى لخيال أعماقي صِورٌ مرئيةٌ أو إشاراتٌ ناطقة، يا خارتيماس. اختلطَ عليَّ وقتُ الطعام بين الغداءِ والعشاء. أترى خاصرتيَّ؟ جلديَ لم يعد ملتمعاً. إنَّه هُزالُ الحيرة»، وألقى نظرة، من مشارف باب الكهف الكبير، على العراء.

«ما الذي يجري في أرض «هايْدْرَا هُوْدَاهُوْسْ» يا سوسينو؟ خمائرُ العافية غَدَتْ حامضةً. غدا خبزُ يقيننا حامضاً»، قال خارتيماس، وهزَّ ذيلَهُ يطرد ذبابةً من ذبابات السرخس الصغيرة.

«لم يعد مُحْتَملاً ما يفعله الأمير ثِيوني». مَنْ تظنُّه أوحى إليه شرارةَ الجحيم هذه؟ ليس في عِلْمِ تراب هايدراهوداهوس، ولا في عِلْمِ هوائها ـ هواءِ الكهوف الكبرى، سابقةٌ يتسلّى فيها مَلِك أو أمير باستنطاق الناس عن أحلامهم، أيها الهوداهوس خارتيماس. البقاءُ يتقوَّضُ هنا»، قال سوسينو. حَصَرَ الأفقَ المخيَّطَ بإبرة السهول في بصره. مسَّتِ اللوعةُ عينيه بأنفاسها

سليم بركات شاعر وروائي سوري يقيم في السويد

المالحة فدمعتا: «سأرحل بعائلتي عن هذه الأرض. سأُفني في قلبي حنينَ المكان».

صَمَتَ الوجود الناطق. انحدرَ المخلوقان ذوا نصفي الإنسان ونصفي الحصان من المُرْتَفَع، الذي يكلِّله هيكلُ الكهف، إلى السهل. اختلطَ طيفاهما بأطياف الزُّرَّاع المجتهديْن في منطق الزَّرع، ومؤانسة الخُضَار النبيلة في حقولهم.

ثيُوني ـ هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس

في صباحٍ لطيفِ الحنجرة، ذي غناءٍ خافت تتشرَّبه الأعمدةُ الجليلة في كهوف هايدراهوداهوس ـ أرضِ الصُّنَّاعِ السَّحرةِ للخناجر، والحدوات، خرج الأمير ثيوني من مخدعه الحجري مبتسماً إلى بهو كهفه. كان الخِوان الصخرُ، المستطيلُ ستاً وستين ذراعاً، على أتمِّ عُدَّته: فاكهةُ الظلِّ وفاكهة الشمس متجاورةً في الصِّحَاف. ورقُ الدَّلبوث، وأسواقُ الهَليون الفتية مقشرةً، وبعضُ أزهار القَرْعِ المنقوعة في خلِّ الدراق الفجِّ، وهي ما يستمرئُها ثيوني على الريق.

نهض خُلصاءُ الأمير الجالسون. تهيَّأ الخدمُ وهم يطلقون صهيلاً محسوباً بقياس الدُّربة من حناجرهم، خافتةً لكنها صارمةُ النَّبر في علوم الخَدَم أَنْصَاف الإنسان وأَنْصَاف الخَيل. جلس ثيوني وصدرُهُ إلى الخوان. جلس الخُلصاءُ ممدِّدِيْنَ قوائمَهم، كلٌّ بحسب ما يريْحُه. هزُّوا أعراقهم المتدلية فوق الجباه، قبل أن يقرِّب الخدمُ الصحون إلى متناول أيديهم، وقد انحنوا بقوائمهم الأمامية على الأرض الرخام، في الفسحات المتساوية بين جليسٍ وآخر. تحدَّث الأمير: «رأيتُ نصفَ حلمٍ بهيجاً في ليلتي. سأنتظر قدوم الأميرة أنيكساميدا لتُتِمَّه لي. عندها النصفُ الآخر».

لكل مخلوق في هايدراهوداهوس من يشاطره، من الأقربين إليه، نصفَ حلمه. لا أحد يحلم حلماً كاملاً. لكن لا أحد يروي لغير شريكه في مناصفة الحلم ما يراه من تجلِّي منامه عليه بالصور مندرجةً في خصائص اللون، أو بلا لون: منذ السنة السادسة من أعمار المخلوقات هذه، ذوات أنصاف جذوع الإنسان الملتصقة بهياكل الخيول، يختار القرينُ قرينَه، بالتوافق النبيل لشروق الطِّباعِ على أعماقهما. ولم يحدث، قط، أنْ جرى إخلالٌ بذلك التوافق، الشبيه بالميثاق، بين اثنين. إنه اختيار الإقامة النهائية في الحيِّز الذي يؤثِّثُه، برهافة المصادفة المُدلَّلة، كلٌّ من الظلِّ والشكل.

هم، المخلوقات التي تتنادى بلقب الهوداهوس قبل لفظ الأسماء الخاصة بمَنْ يُنَادَون، يعرفون بالفطرة أن كل اثنين يتناصفان حُلماً واحداً. ولم يخرج أحد عن العُرف في كتمان حلمه لنفسه ولقرينه. لكنهم يتبادلون الإشارات، تلميحاً، للتدليل على أحوال الأحلام التي تشاطروها: « هذان مرَّا بحقول ذهبٍ. ذانِ صَعَدا مَدَارجَ الغمام بحَدَواتٍ من معدنٍ ليس من معادن الحدوات. ذانكَ خابا في إتمام شهوةٍ».

إنه تخمينٌ لأحوال الأحلام بالفِراسة التي فيهم، أو بالقياس النفساني إلى أحوالهم بعد أحلامٍ أغوتْ خيالَ نومهم: الخيبةُ، اللذة، الكابوس، الرضا، النِّزاع والاضطراب، الانحصارُ،

العلاماتُ القلقةُ؛ كلُّ ذلك يترك في العيون، بعد اليقظة، أثراً من خطواته الخفية. بَيْدَ أنَّ التخمين يبقى تخميناً. أما الحلم المُتَناصَفُ فهو ـ بحقيقة صوره، وأطياف عناصره الضَّالة والمُسْترشِدة، المتكافئة وغير المتكافئة ـ رهيْنُ علْم المتشاركيْنَ فيه إلى الأبد.

ثيوني، أمير هايدراهوداهوس ذات الكهوف المُجْتَاحَة بالأعمدة المهيبة، حَرَق الموروثَ. فاجأ جُلساءَه الخُلَصاءَ ـ غضاريفَ الحقول المديدة، وأُمناءَ خزائن المُؤَن والأسلحة ـ بالطلب إلى زوجته آنيكساميدا أن تسرد نصفَ حلمها على أسماعهم. صَهلَ الحاضرون. اهتز عرفُ الأنثى تحت خمارها النازل حتى ظهرها. اهتز ثدياها المحتجبان تحت شبكة الذهب المتدلية من عنقها على صدرها. التمع جسدُها الأبلقُ ذو الوبر الحرير كأهداب طائر النَّعام: «أيها الهوداهوس الأميرُ، يا زوجي الناطق بلسان الكهوف ذي الشِّعَب الثلاث، هل هي رؤيا أمْلَتْ عليك كَشْفَ المستور من خصائصنا ـ نحن مخلوقاتِ الشكل الأنبل؟».

«ما من رؤيا أمْلَتْ عليَّ هذا الطلبَ، أيتها الهوداهوس الأميرة، يا زوجتي الناطقة من بصرها ـ بصرِ الكهوف الأكثر كمالاً. لقد أمْليتُ رؤيايَ عليَّ وأمْلَيْتُ، ما أريدُ، على رؤيايَ. لا حلم يبقى مُلْكَ اثنين، وحدهما، في هذا المجلس، بعد اليوم»، قال ثيوني ذو العباءة القصيرة، المنحدرة بمخملها الأصفر من كتفيه على ظهره ـ ظهرِ الجواد والآدميِّ المتصلين.

عَرِقتْ يدا أنيكساميدا. لطالما سَرَدتْ على زوجهاَ النصفَ الذي تحلمه، ولطالما سردَ عليها زوجُهاَ النصفَ الذي يحلمه. هذا إن حَلما، مثلهما مثل مخلوقات هايدراهوداهوس، وإن لم يحلما تواعدا أن يعتصرا، ما يقدران على اعتصاره، بيَد النوم، من عناقيد الليل الناضجة، أبداً، في الفصول كلها. تعثَّر خيالُها بصوتها قليلاً، وتعثَّرَ صوتُها بحطام السرِّ الذي تناثر في المجلس: «رأيتُك جريحاً بلا ألم. كنتَ تروي فكاهةً لكاهن الطواحين، الهوداهوس كيدرومي وهو يأكل قِثَّاءً. لقد ناديتَهُ، مرتين ـ بعد ذلك ـ باسم أُورْسِيْنْ»، قالت الأميرة. حَمْحَمت حَمْحمةً خافتةً وهزَّت ذيلها الأسودَ، الملتمعَ الشَّعر من زيت زهرة عبَّاد الشمس.

«غريب هذا»، قال الأمير وهو يمضغ زهرةَ قَرْعٍ مخلَّلة. «النصف الذي عندي بهيجٌ. كان كاهن الطواحين معي. نعم. لكنه يعدُّ على أصابع يديه الإمارات التي يريد أمراؤها الدخول، طوعاً، في شرعِ هايدراهوداهوس ـ شرع التسليم بتحنيط الموتى بدل حَرْقهم. الحَرْقُ يُكْثِر اقتحامَ الأرواح للأمكنة المحظورة: العقل. الهيكل الذي يتزوَّد فيه الأمراء برؤيا الكهوف المفقودة. مخادع النساء». ابتسم: «لا نريدَ شركاءً في خلواتنا». واستدار إلى زوجته: «نصفُ حلمي بهيجٌ. لا. ربما ليس بهيجاً على نحو ما أريد. كنتُ أتمنى أن يسترسل أمراءُ التخوم الحجرية في عنادهم»، وحَمْحَمَ بقوة، فتلمس الجالسون أطرافَ الخوان. «منذ بلغتْ سلالتُنا الذُّروةَ في شؤون تدبير الحروب لم نعد نجد مَخْرَجاً من ذلك. الحروبُ تمرينٌ عقليٌّ لاستدراج النَّفْس إلى صُلْحٍ مع القَلَق. بين كل حرب وأخرى فسحةٌ لا تُعَوَّض ـ لأنها فسحة بين حرب وأخرى ـ من أجل ترتيب العقل نَفْسِه ترتيباً أشبه بأعمدة هايدراهوداهوس: إنها لا تسند سقوفَ كهوفنا فحسب، بل تسند الدورةَ المفقودة للنِّظام السماوي الثابت. بين حرب وأخرى تلزمنا فسحةٌ للتفكير في حرب

جديدة، أكثر كمالاً. وهؤلاء الأمراء يعودون بي إلى الضجر، أيها الهوداهوس الخُلصاء». حَمْحَمَ في خفوتٍ. حَمْحَم الجلساءُ ـ أهلُ البأس. «أين أنسْتوميس؟»، سأل الأميرُ بالتفات من رأسه على جهات الخوان. «ماذا قلت أيتها الأميرة؟. كنتُ أنادي كاهن الطواحين باسم أورْسِيْن. أين أنسْتُوْمِيْسْ لتتدبَّر لي معنى هذا الاسم؟».

لوحُ أنسْتُوميس

ككل مخلوقات الهوداهوس، كانت أنسْتُوْمِيْسْ تحمل خنجرين، بدورها، يتدليان من حزامين تحت إبطيها. سَلَّت الخنجرَ الأيمن بيدها اليسرى من الغمد الذهبيِّ، ونقرَتْ بنصله الرهيف على حجرٍ في جدار الكهف مليءٍ بالرسوم: «هذا النحت يحوجُهُ ترميم أيها الهوداهوس سِيْنُو»، قالت لحامل المفاتيح، تابعها، في إدارة «فِيْقْلافِيْذِيْ» ـ مكتبة أرض هايدراهوداهوس. العلوم المتوارثةُ، بتمام الخصائص المُسْتَنْسَخَة عن شرائع الليل وشرائع النهار، كانت في عهْدَة أنستوميس، مدوَّنةً منحوتاتٍ نافرةً، أو غائرةً، على ألواح يمكن نَقْلُها، وعلى جدران الكهف ذي الجوف المتعرِّج، المحمول السقف على ثمانمائة عمودٍ أخضر، كلُّ عمود يتوسط فسحةً قوسيَّة ذات طنافس للجلوس، ومقاعد متدرِّجة العلوِّ تواجه الجدران ليتأمَّلها الزائرون.

تصاويرُ أشكالٍ بلا نهاية غطَّت الحجرَ حتى السقوف: مخلوقاتُ يابسةٍ، ومخلوقاتُ مياهٍ. مخلوقاتُ هوداهوس، بعضُها كصور أهل المكان الأبعد والأقرب، وبعضُها من فرائد الخيال ـ مجنَّحٌ، أو ذو رؤوس طيورٍ، وماعزٍ، وجواميسَ، وأفاعٍ. الكَتَبَةُ يدوِّنون الصورَ الحروفَ على أوراق النبات، ويتولى النحَّاتون نَقْلَها إلى الحجر، بإشراف أنستوميس ذات القرن الفريد النابت في جبهتها؛ أنستوميس الناجية الوحيدة من فَصيلٍ من الهوادهوس ولدوا بقرون على جباههم. لم يتكاثروا أبعد من خمسة أجيال، ثم تسلَّمتْهم «حُمى القرائن»: أن يجدوا لكل شيء رديفاً: الكلمات. الحركات. العناصر الأربعة. الأفلاك. الأسماء. المخلوقات. أقرُّوا أنَّ أيَ وجودٍ، لحيٍّ أو جَمادٍ، لا يكتمل إلاَّ بوجودٍ آخرَ يجعله مُضَاعَفاً. منطقٌ مَّا أقربُ، في التشبيه، إلى منطق «الشيء ومعناه»، لكنه لم يكن على ذلك النحو الصارم. كان يذهب أبعدَ في تدبير العلائق بين «الشيء ومعناه»، كالعَيْنِ والفَلَك، مثلاً؛ أو النوم وطير الطاووس؛ أو الحرب والرَّحم. ولمَّا عَلِقتْ بعض مسائل القرائن بشِباك خيالهم، فما استطاعوا استخلاصَها ـ مثل الندم، والضرورة، وقياس القياس، والحقيقة، واللون ـ استفحل في أجسادهم مَهَقٌ ينتشر تدريجاً، كلَّما غطى عضواً جفَّ ذلك العضو. سموا المَهَق الغريبَ باسم «حمى القرائن». بقي اسمُ العِلَّة مدوَّناً في كهوف صيادلة هايدراهوداهوس، فيما جفَّت أجسادُ الفصيل ذي القرون، فنُقلوا، محنَّطِيْنَ من فِعْل الداء، إلى أُخدود تَايِيْس، لتستقرَّ هياكلُهم هناك، وقوفاً، إلى جوار هياكل الهوداهوس المحنَّطة بفعل الريح الجافة.

كانت أنستوميس في عامها الثاني حين عرفتْ أنها نَجَتْ من ملاك الحمَّى البيضاء. لم يَعْلَق طحينُ الجفاف، الذي هبَّ من مضيق القَلَق، بجلدها الفضيِّ. مصادفةٌ قادتْها إلى أطراف الهاوية، وراء محيط الكهوف، حيث الركام الحجري المتكوِّم من أنقاض أعمدةٍ، وألواحٍ، هي

نفايةُ الترميم، الذي يقوم عليه صُنَّاعُ الزخرف وصنَّاعُ العِمارة بين أعمدة الكهوف وجدرانها، في هايدراهوداهوس. عثرت المخلوقة الفريدة، ذات القرن الأصفر في جبهتها، على بقية من لوحٍ مهشم، يحمل صورَ مخلوقاتٍ ـ سطورٍ من كتابةٍ غامضة. عادت بالهشيم إلى أبيها المتيبِّس نصفُه ـ نصفُ الجواد. تأمل الأبُ الحروفَ الصورَ بخاصيَّة فصيله، الذي ما مِنْ مخلوق في عِرْقه نسيَ، قط، شيئاً سمع به، أو رآه، أو قرأه في صحائف الحجر. كلُّ كائنٍ منهم ذاكرةٌ لا يَبْلى تفصيلٌ في خزانتها، لذلك عَهَد «مَجْلسُ الصِّور» و«هيئةُ مجازات الأشكال» إليهم أمانة «فيفلافيذي» ـ مكتبةِ أرض هايدراهوداهوس، جيلاً بعد آخر، حتى وصولِ الخلافة إلى أنستوميس «الهادئةُ كظلٍّ في زاوية»، كما سمُّوها.

صهلَ الأب صهيلاً خافتاً. وضع يديه على مقبضيْ خنجريه كعادة الهوداهوس في التأمُّل: «ما هذه الأشكال، يا ابنتي الهادئة؟».

جفَّ الأبُ مسترسلاً في سؤاله عن تلك الأشكال. حُمِلَ هيكلُه إلى أخدود تاييْس ـ أخدود ريحِ الجفاف القادمة من خليج الرمال. بقيت الابنة وحدها في حيرتها. ثم صارت حيرتُها ـ قبلَ انتقالها إلى إدارة «فيفلافيذي» بشهر واحد ـ حيلةً من حِيَلِ المنطق. فالصور المنحوتة على بقايا اللوح الهشيم كانت تكراراً لشكل يجعل من معنى القرين سيرورةَ عبثٍ. هكذا خمَّنتْ أنستوميس. الأشكال، التي كانت تشبه بأنصافها الأمامية العلوية، من الرؤوس حتى البطون، أشكالَ الهوداهوس الأمامية، كانت تتصل ـ على نحوٍ مستقيم ـ بأفخاذ، وسيقان، وأقدام، لا غير. ما من اندماجٍ فيها بأعضاءِ جيادٍ. عراةٌ عليهم عباءات قصيرة تصل حتى أردافهم، وعلى رؤوسهم تيجانٌ رقيقة الأطواق. كانوا متشابهين بلا تمايز. كانوا استنساخاً لتجلٍّ من صورةٍ واحدةٍ على خيال نحَّاتها. وذلك، تحديداً، ما انتشل أنستوميس من الغرق، كمخلوقاتِ فصيلها الفريد، في الهاوية البيضاء لـ «حُمى القرائن». لقد انفكَّت عقدةُ تدبير العلاقة بين الشيء ومعناه: «التكرارُ خاصيَّةُ عَزْلٍ للوسائط المفترضَة أن ندوِّخ عظامنا في استدراجها إلى ربط وجودٍ ماَّ بوجود آخرَ يؤسِّسُه، ويضاعفُه ليصير مُحْتَمَلاً. هذه الأشكال لا تروي حكايةً؛ لا تروي مأثَرَةً؛ لا تأمَلُ أن يستخلص النظرُ إليها ما يوحي أنها كانت صَوْغاً كاملاً أو ناقصاً لحروفٍ»، قالت أنستوميس بلسان المنطق فيها لعقل القلق فيها. تحدثت طويلاً ـ بصوتٍ عالٍ يشوبه انفلاتُ الصهيل من مخارج الحروف ـ إلى نفسها، في عبورها حقولَ الذُّرة، كلما عثرت على نُتَفٍ من بقية اللوح الغامض. «سأسمِّيه الواقف على ساقين ككراكي السَّهل المُعشب. الواقفَ على ساقين. الواقفَ أبداً. أيستطيع أن يطوي أعضاءَه؟ من تخيَّل هذا الشكل المُعذَّبَ؟ إنه بلا قرين». صَهَلَت في لوعةٍ: «ما الذي فعلتْهُ أُمَّتي ـ أُمَّةُ القَرْن النابت في الجبهة ـ بنفسها؟ انحدرَ المولودُ الأول منا من رحم أنثى هوداهوس عاديةٍ تصنع أقفاص الطواويس من قصبِ نهر تُوْمان الأزرق. تزوج المولودُ الذكر، بعد ثلاث سنين، أنثى هوداهوس عاديةً تجدِّل أذيالَ إناث الهوداهوس وتزيِّنها بسلاسل من وَدَعِ نهر تُوْمَانْ. جاء المولود الثاني من فصيلنا أنثى بقرنٍ تزوجت ذكراً من الهوداهوس يصنع حدواتٍ للخياطين، ومزيِّني أعمدة الكهوف ذوي العيون القرمزية. أنجبت

الأنثى أنثىً بقرنٍ في جبهتها. انحسرتْ جاذبية الغرابة من أعماق الهوداهوس وهم يرون تكرار رؤوسٍ نبتت على جباهها قرون كقرون الجِداء. انفكُّوا عن التزاوج بهم، فتزاوج وحيدو القرون بعضُهم من بعض، يورِّثُ المخلوقُ منهم نَسْلَهُ خنجريْه وذاكرتَهُ ـ ذاكرةَ الحِفظ بلا نهاية». تلمَّست أنستوميس مقبضَيْ خنجريها، وَصَهَلت صهيلاً خافتاً. «ما الذي فعلتْهُ أُمتي الصغيرة بنفسها؟ ما الذي استدرجها إلى فخِّ البحث عن إيجاد قرينٍ لكل شيء؟. ألم يعبر خيالَ واحدٍ منها صورةُ شكلٍ يشبه شكلَ هذا الكائن الواقف على ساقينِ في مِزَق اللوح الغريب؟ مُذْ رأيتُ نحتَ هذا الكائن عرفتُ أنني نجوتُ من الحمى. آه، أبي، أيها المنتصَبُ يابساً في مجرى الريح بأخدود تايبس، لماذا عاد بصرُكَ بلا صيدٍ من هذا اللوح؟».

مسحتْ أنستوميس بطرف عباءتها الزرقاء القصيرة عينيها من برق الدمعة المتلصِّصة منهما على الوجود، حين عاد خيالُها بها إلى الممرات بين حقول الدُّرة، تعبرُها عائدةً بمِزَق اللوح إلى خزانة البيت الحجرية. ولَمَّا استقرت «فيفلافيذي» في عُهْدتها، استقرَّت بقايا اللوح، أيضاً في خزانة من خزائن الكهف منحوتةٍ في عمود بلا نقوش، بين الأعمدة الثمانمائة الخضراء، لا يفتح سينو بابَها الدائري لسواها؛ يفتحه في نضوج القمر على نار دورته الكاملة ـ دورةِ النُّور النَّحات، أيْ في الموعد الغامض، الذي يختلط نظامُ جسد أنستوميس، كأنثى، بنظام الدورة الفلكية، فتصيرُ متوجِّسةً، قلقةً، ممتلئةً برغبة في البكاء بلا سبب.

نقرتْ أنستوميس بنصل خنجرها على حجر في الكهف: «أيها الهوداهوس سينو، هذه النقوش تتآكل. أريدُ مَن يرمِّمها. نحن قُرَّاءُ الصور لا نثق إلا بعيوننا»، قالت، وعادت فمسحت طَرْفَ عينها اليسرى بظاهر يدها الممسكة بالخنجر.

صهل سينو صهيلاً خافتاً: «أرى رسولاً في باب الكهف يومىء إليَّ». مشى إلى باب الكهف في تُؤَدةٍ، على حوافره الأربعة، المبطَّنة بأربع حدوات من معدن النحاس. غاب قليلاً، ثم عاد مسرعاً: «يطلبكِ الهوداهوس الأميرُ أيتها الهوداهوس أنستوميس، مروِّضَةُ نظامِ الصور في فيفلافيذي».

صهلتْ أنستوميس صهيلَ المُلَبِّي المتدرِّجَ في خفوتِ نبرته. أعادتْ خنجرها إلى الغمد الأيسر، وهي لَمَّا تزل تشير بإصبعها إلى النقوش كي لاينسى سينو أمرَ الترميم.

أُوْرْسِيْنْ

«ما الموتُ؟، أيتها الهوداهوس أنستوميس»، قال الأمير ثيوني فور دخول حاكمة «فيفلافيذي»، ذات الحدوات الفضة السميكة، إلى المجلس الدائري، المؤثث بوسائد مستطيلة كبيرة من حول نافورة الماء، حيث انتقل الأمير والأعيان بعد إفطارهم.

«أنت تجفلُها، يا زوجي الهوداهوس الأمير. سؤال كهذا يتعيَّنُ نقشُهُ، بهدوءٍ»، قالت الأميرةُ أنيكساميدا بتوبيخٍ خفيفٍ. حَمْحَمتْ.

«الموتُ صاخبٌ، يا زوجتي الهوداهوس أنيكساميدا، فلماذا لا يكون سؤالي صاخباً؟»،

وتطلَّع إلى أنستوميس. ابتسم: «تُشغِلُكِ الصورُ النبيلةُ يا حاكمة فيفلافيذي، وأنا يشغلني ما يُشغِلُ الصورَ».

تدحرجَ صوتٌ عابثٌ في أرجاء المجلس الدائري. وقف المهرِّج خَانْياسْ على قائمتيه الخلفيتين، فَجَلجَلَ الجرسُ المتدلي من عنقه على صدره الأبيض في رقعة جلده البنيِّ: «أنا أعرف الموت».

«أجفلْتَنا»، قال الأمير ساخطاً. «أما من أحد، في هايدراهوداهوس، يخنق هذا المعتوهَ بيديه؟ أما من أحدٍ يذبحُه بحدوتِه لا بخنجره؟».

«بلى»، قال المهرج. وسلَّ خنجريه اللذين ينتهيان بنصلين مكسوريْن: «أنا سأقتل نفسي عشر مرات، من الآن وحتى تعود الابتسامة إليك»، ثم ركع على ركبتَيْ قائمتيه الأماميتين، وفتح ذراعيه على وسْعهما: «أنا ميت، أيها الهواداهوس الأمير. أتحاسبُ ميتاً؟ جفَّ جسدي، في وقت غابرٍ لم أعد أَتذكَّره. جفَّ كثمرةٍ. انفلقتِ الثمرةُ الجافةُ فسقطتْ منها بزرةُ الحياة في غمامةٍ صغيرةٍ تائهة. نبتتِ البزرةُ من رطوبة الغمامة. ولدتُ تائهاً. أنا لستُ أنا. أنا ثغرة في الوجود تركها الذي كنتَ ستحاسبه، أيها الهوداهوس الأمير. أتحاسب من هو ليسَ هو؟». سَنَّ الخنجريْن أحدَهما بالآخر كجزَّارٍ: «الآن سأقول لك ما هو الموتُ، لأنني أعرفه».

«بحقِّ اللون ـ الإله سأشويك، ذات يوم، يا خانياس، على نار هادئة من شَعْر أذيال الهوداهوس، بدءاً بذيلِ كاهن الطواحين كِيْدرُوْمي. ستكون طعامَ نبلائي، وخاصَّتي، هؤلاء، لقمةً لقمةً»، قال الأمير، فصدر صهيلٌ من أفواه الجالسين استنكاراً مستفظعيْنَ: «ستقتلنا، أيها الهوداهوس الأمير»، تمتموا بلسانٍ واحد.

«ألم تشبعوا من أكل الطير؟ لا نأكلُ من اللحم إلاَّ الطير. من أَلْهَمَ سلالة الهوداهوس هذا الإختزال؟»، قال الأمير مُحَمْحِماً.

«الشَّكَلُ»، قال كاهن الطواحين. أردفَ: «لا نأكل ما يقف على أكثر من ساقيْن. لا نأكل أشباهَنا».

«طعامُكَ الفراشاتُ، أيها الهوداهوس الكاهن. أعرف ذلك. كم جيلاً تريد أن تعاشر؟ أما تضجر؟». واحتدمَ قليلاً. مدَّ عنقَه ليرى الصفَّ الثاني من الجالسيْنَ، أَبْعَدَ من الحلقة حول النافورة: «أوْقِفي إرضاعَ ابنتك، أيتها الهوداهوس سَالُوْتيا، زوجةَ أخي أكْسيانُوس. كلما جلستِ هناك أرضعتِ ابنتكِ. أنحن مضجرون إلى هذا الحدِّ؟»، قال، فأعادتِ الأنثى الجالسةُ قرب عمودٍ ثديَها إلى مكمنه تحت أطواق الخرز الكثيفة، النازلة من عنقها حتى أسفل ثدييها. حَمْحَمتْ حَمْحَمةً خافتةً فيها اعتذارٌ ما.

«ما المووتُ؟»، عاد الأمير يسائل أنستوميس الواقفة خلف حلقة الجُلساء.

«لاأعرف، أيها الهوداهوس الأمير. لكنني أُخمِّن، بخيالِ النُّقصان، أنه خرابُ اللون». قالت أنستوميس، ذات الشعر الأسود الطويل المجدول عشرين جديلة.

«أمَّتُكَ عرفتِ الموتَ أسرعَ، كأنَّ الموتَ وُلدَ معها»، قال الأمير، فضحك خانياس المهرِّج: «إذا لم نولد لا يولد الموتُ، يا أميري».

«الموتُ، الذي ولدَ معك، يا خانياس، سيمزِّق نَفْسَهُ لوعةً مما سأفعل بكَ»، قال الأمير. مسَّ مقبضَيْ خنجريه الذهبيين، محدِّقاً إلى أنستوميس: «لماذا نأتي بمهرِّجيْنَ يثيرون فينا الرغبةَ في ذبحهم، لكننا لا نذبحهم؟».

دخلت المزيِّنتان سَافِيْتُوْسْ، وأُختُها رُوْسِيْنا، إلى الكهف ذي النقوش الباذخة على جدرانه ـ نقوشِ مخلوقات البحر المجنَّحة. تقدَّمتا بجلديهما النقيِّ البياض إلى السدَّة العالية درجتين لا غير، حيث جلس الأمير مستطلعاً خُلَصاءه، وأُمناءَ إدارة هايدراهوداهوس. صعدتا درجةً واحدةً وجلستا على بطنيهما قبالة وجه الأمير، الذي انحرفَ قليلاً ليواجههما، مديراً جنبَه الأيمن للأعيان الجالسين، بعدما أومأ إلى أنستوميس أن تجلس على الفُرُش المبسوطة على أرض الكهف الأعظم. أخرجت المزَيِّنتان أصباغَهما من صندوقين صغيرين، مكسوَّيْن برقائق النحاس الأحمر. مشطتا شَعْرَ الأَمير المُسْدَل على أذنيه. مشطتا لحيته المدبَّبة القصيرة، ثم بدأتا في تزيين وجهه بتؤدةٍ في الحركة، ورقَّةٍ في اللمس.

الهوداهوس، أَجمعوْن، دأبوا على التبرُّج: الذكور، والإناث. أما الأطفال فاكتفوا لهم بخطوط من اللون على ذقونهم. غير أن الأمير ثيوني اتَّخذَ لنفسه نوعين من زينة الوجه بالأصباغ: تبرُّجٌ خفيف داخل كهف مجلسه، بين الخُلصاءِ والأمناء والعائلة، وتبرُّجٌ ثقيلٌ أشبه بالقناع إذا خرج إلى كهوف الإدارات، أو الساحات، أو استعراضِ أمور رعيته في الأسواق، والحقول، وحلبات سباق الهوداهوس الشُّعراء يلقون أشعارَهم وهم يركضون إلى أن يستنفِدَ أحدُهم الهواءَ من رئتيه فيسقط صريعاً من الإرهاق، فيخسَرَ.

وجهُ الأمير بلا قناعٍ من الأصباغ لم يألَفْهُ العامَّةُ. بقي من أسرار الكهف الأعظم ـ «الكهف العقل» كما اعتاد الحَرَسُ الأقوياءُ أن يتهامسوا بالاسم. ظلُّ فراشةٍ بلون الحديد كانت تغطي وجه الأَمير، عادةً، إذا غادر الكهف. وقد أضافت المزَيِّنتان الأُختان خمسةَ أهدابٍ حمراء، فوق الجلد، تحت كل جفنٍ من الجفنين السفليين لعيني ثيوني. رفعتا المرآة ليرى الإضافة فابتسم راضياً. حَمْحَمَ خانياس فشرخ صمتَ المجلس: «لقد حلمتُ حلماً كاملاً» قال، فانفجرتِ القهقهات. كاهن الطواحين كيدرومي ظل صامتاً. لمس شاربيه المفرطيْن في طولهما، المفتوليْن، والمربوطين إلى أذنيه بخيطين من الحرير كقوسين، على جانبي وجهه الحَليق اللحية. حَمْحَمَ خانياس ثانيةً، وأخرج من جعبة تتدلى من كتفه عَظْمةً رقيقةً: «هذا ما تبقَّى من آخر هوداهوس أكلتُهُ في حلمي، وأنا ميت». ارتفعتِ القهقهاتُ من جديد. تمتم الكاهن ممتعضاً: «ما الخطوةُ التاليةُ بعد موتكَ، يا خانياس؟».

«أنا الهوداهوس خانياس، سأبدأ بالتعرُّف إلى موتي»، قال المهرِّج.

صهل الأميرُ صهيلاً خافتاً: «أريد أنا أيضاً أن أتعرف إلى موتِكَ. أهو مُضْجِرٌ إلى هذا الحدِّ؟».

«لم تتعرَّف إليه، بَعْدُ، أيها الهوداهوس الأمير»، قال خانياس، فرد ثيوبي: «هو مُضْجِرٌ، أو ضجران، ولا شيء آخر. مَنْ يأخذ المخلوقات على النحو ذاته، صامتيْنَ بعد عبوره، هو

مُضْجرٌ، أو ضجران». وهزَّ ذؤابة الشعر المتدلية على جبينه: «أيتها الهوداهوس أنستوميس. طلبتُك لأعرف إن كان في علومك معنىً مَّا للفظة «أورسين». هي ليست من لغة أهل هايدراهوداهوس، أو جوارها. ربما هي اختلاطُ حروف»، قال.

«أورسين..»، تمتمت أنستوميس. كررت اللفظة أربع مرات. «ليس في حقل ذاكرتي بزرةٌ ينبتُ منها معنىً لهذا اللفظ، أيها الهوداهوس الأمير. لكنني سأكرِّر بلساني على عقلي حتى ينهشَّم. ربما استطعتُ إعادةَ جَمْعِ حُطام هذا اللفظ نَسَقاً من صورٍ». وأغمضت عينيها الواسعتين لحظاتٍ. فتحتهما: «نصفُ صورةٍ. مخلوقٌ بنصفٍ واحدٍ. هذا ما ينبتُ في حقل خيالي، أيها الهوداهوس الأمير». حَمْحَمتْ حَمْحَمةً خافتةً: «إنه مخلوقٌ بلا ذاكرة».

«كيف تميِّزين بين صورةِ كائنٍ بذاكرةٍ وآخر بلا ذاكرة، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، سألها الأمير وهو يمسك بيد المُزَيِّنة روسينا الرقيقة كظلٍّ سنبلة.

«الكائنُ، الذي يتأمَّل كائناً آخر مثلَه ناقصَ الأعضاء، هو بلا ذاكرة. لديَّ رسومٌ في الكهف الثامن من مقاصير فيفلافيذي: طيور لا أجنحة لها. لا أذيال. متواجهةٌ صفوفاً يتأمل أحدُها الآخر على نحوٍ لا يُطاق»، قالت أنستوميس. عبرتْ خيالَها ريحٌ قَلِقَةٌ إذْ تذكَّرتْ، فجاءةً، اللوحَ المُهَشَّمَ، الذي يحمل نَحْتَ الكائنات الواقفة، كلٌّ منها، على ساقيْن.

صهل خانياس: «نحن الهوداهوس ذاكرةٌ فقدها كائنٌ ما فظلَّ بلا ذاكرة. إنه كائن يدور على نَفْسِه في ذاكرتنا نحن. لا نعثر عليه لأننا نفقد مكانَهُ في دورانه على نفسه، وهو لايعثر علينا لأنه موجود داخلَ ما يحاول العثور عليه» قال، فأخرسَهُ الأمير: «أريد مهرِّجاً يا خانياس. لم تعد لكَ ذاكرةٌ مهرِّج».

دخلت حمامة من كوةٍ في أعالي الكهف. حوَّمت قليلاً وحطتْ على ظهر الأمير: «أعطِني بعض حبوب مَّا في حقيبتِك، أيها الهوداهوس الكاهن»، قال، فانتقلت حفنةٌ من بذور القمح، عبر الأيدي، حتى وصلت إلى يد المزيِّنة سافينوس. نثرتِ الأنثى النقيةُ البياض الحبوبَ قرب صدر الأمير. مشت حمامةُ الزَّاجل فوق ظهره، ثم قفزت فحطت على كتفه اليمنى، ثم نزلت لتنقر الحبوبَ. طوَّقها الأمير بيديه في رقَّةٍ فاستسلمتْ لهما. حَمَلها بيدٍ، وفكَّ بالأخرى الخيطَ الأزرقَ الذي شدَّ إلى ساقها ريشةً بيضاء صغيرة. شمَّ الريشة: «هذه من صَدْرِ طير الألباتروس. إنها رسالةُ الميناء: لقد وصل الهوداهوس الملاحون بالمعادن من مناجم جُزر لُوْثَان»، قال، وأرخى يديه عن حمامة الزَّاجل، فواصلت نَقْر الحبوب.

نهض الأمير عن السدَّة الوثيرة. نهضت المزينتان، والحاضرون. تهيأ الحرسُ من حول صحن الكهف في خوذاتهم الحديد الشبيهة بأقنعة تصل حتى أنوفهم. اهتزت شواربُهم الكثيفةُ المفرطة في طولها، في وجوههم الحليقة اللحى. نزل الأميرُ الدرجتين. وقف برهةً: «كل اثنين منكم سيسردان لي، منذ صباح الغد، حُلُماً»، قال، فسقطت كلماتُه كرصاص مصهور فوق الرؤوس. صهلوا صهيلاً ملجوماً، مُمَزَّقاً، مذعوراً، مرتجفاً. نطق الكاهنُ:

ـ الحلمُ لونٌ. إن كشفناهُ أهنَّاهُ، أيها الهوداهوس الأمير.

«سأهيْنُ اللونَ»، قال الأمير. اهتزتِ الأدراجُ التي تقف عليها الحقائقُ في خيال مخلوقات الهوداهوس: لا يُقسِمونَ إلاَّ باللون. لا يتضرَّعون إلاَّ إلى الإله ـ اللون.

«أنت، أيها الهوداهوس الكاهن، وتابعُك الوفيُّ الهوداهوس تِيْتُوْنا، ستكونان طليعة من يتشرَّفُ صباحي أن يصغي إلى حلمهما. سنعطيك لقبَ كاهن الصباحِ أيضاً، يا كاهن الطواحين»، قال الأمير، فتبلبل لونُ الكاهن.

مشى الأمير يواكبُه المحاربون بخناجر على مقابضها نَقْشُ السنبلة والحوت. خرجوا من الكهف الأعظم إلى حدائق الصَّخر فتلقَّاهم الموسيقيون، تحت الشمس، بالمزامير والقياثر.

تحقيقات الكاهن كِيْدرومي

صهل الكاهن كيدرومي، في طبقة الأرض الثالثة تحت كهف الطواحين الشاسع الأرجاء. دار من حول مخلوق الهوداهوس الأبيض، المقيَّد القوائم. «سأقطع ذيلك»، قال فطقطقت أسنانُ المخلوق المقيَّد.

«ما الحُلمُ الكامل؟. سأُعيدُكَ طليقاً إن شرحتَ لي ما كنتَ تثرثر به للطحَّانين ساعة قيلولتهم»، قال الكاهن. صهل ثانيةً: «أهي هرطقةٌ ما تفوَّهتَ به، أمْ رؤيا؟».

«لا هذه ولاتلكَ، أيها الهوداهوس الكاهن. الأمرُ تمرينٌ على الوحدة»، قال الهوداهوس المقيَّد. تدخَّل أكسيْانوس، أخو الأمير، المصغي إلى المحاورة: «ما نفعُكَ من الوحدة، أيها الشقيُّ؟».

«ذلك يخصُّني أيها الهوداهوس الضَّجران»، قال المخلوقُ المقيَّد.

حَمْحَمَ أكسيانوس الواقف إلى جوار تِيْتُونا العملاق. التمعتْ في عينيه بذور الذهب المنثورة من المشاعل القوية على جدران الكهف: «أتعرفني؟»، تمتم باحتدامٍ خفيفٍ، فردَّ المخلوق المقيَّد: «لا، أيها الهوداهوس. لكن لصوتك نبرةُ المروِّضيْن».

«ما الذي يجعلك تعتقد أنني ضجران؟»، سأله أكسيانوس، فرد المخلوقُ المقيَّد: «ما الذي أفعلُه هنا؟ أنت تتسلى عن ضجركَ باستنطاقي. أمَّا الكاهن..» وصمتَ محدِّقاً إلى عيني كيدرومي الغائرتين من ثقل ضراعاتِه إلى الريح.

صهل الكاهن: «وماذا عنِّي؟».

لم ينطق المخلوق المقيَّد.

«أتعرف ماذا يعني أن أقطعَ ذيلك؟ لامخلوقَ يعرفُ الشقاءَ، وجهاً لوجه، أكثر من هوداهوسَ بلا ذيل. أخبرني ما تكتمه من خواصِّ الحلم الكامل. أمْ أنتَ تهذي؟ ليس في علوم مخلوقات الهوداهوس، أو سماءِ هايدراهوداهوس وأرضها، من ادّعى حلماً كاملاً. أمَّا أنتَ..». لجمَ بقية الكلماتِ. نظر إلى أكسيانوس: «أتظنُّ أن له شركاء، أيضاً، يدَّعون حلول هذي الرؤيا فيهم، أيها الهوداهوس أكسيانوس ـ راعيَ الأمَّهاتِ السهول؟»، والتفت، ثانيةً، إلى المخلوق المقيَّد بوجهٍ قَلِقٍ. انخطف قلبُه من فكرتِه هو ـ فكرةِ الكاهن الوصيِّ على طِباع العلوم: «ما الحلمُ

الكاملُ، أيها الشقيُّ؟».

«هو أن لا أحتاجَ شريكاً يقودني إلى النصف الآخر من حلمي، أو أقوده إلى النصف الآخر من حلمه. حُلمٌ كاملٌ ليس حُلُماً فحسب، بل تمرينٌ على إملاءِ سِرٍّ على أنفسنا لا يخصُّ غيرنا»، قال الهوداهوس المقيَّد.

حَمْحَمَ كيدرومي: «ما حاجتُك إلى الأسرار؟». رد الهوداهوس المقيَّد:

ـ هي حاجتي إلى الوحدة.

«ما حاجتُكَ إلى الوحدة؟»، دَمْدَمَ كيدرومي. تدخل أكسيانوس:

ـ الوحدةُ حيلة. ماذا تتدبَّر في الوحدة غيرَ الحيلة، أيها الشقيُّ؟.

«أتدبَّر لنفسيَ سِرَّها»، ردَّ المخلوق المقيَّد.

حمحمَ كيدورمي: «أأنت تتمرَّد على هايدراهوداهوس؟».

«أنت تُغالي في ريبتِكَ، أيها الهوداهوس الكاهن. ليس تمرُّداً أن يكون لي سِرٌ لا يخصُّ غيري»، قال الهوداهوس المقيَّد.

«كلُّ سِرٍّ تمرُّدٌ»، قال كيدومي.

«ألا سِرَّ لك، أيها الهوداهوس الكاهن؟»، ساءله المقيَّدُ، فرد كيدرومي حانقاً: «لي أسرارُ اللون. وهي الحقائق».

صهل أكسيانوس: «ألكَ، حقاً، حلمٌ كامل، أيها الشقيُّ؟».

«ما الخوف من أن يكون لي حلمٌ كامل، أيها الهوداهوس المروِّض؟»، قال المُقيَّد، فصفعه أكسيانوس: «لو تعرف من أنا؟».

«لا أريد أن أعرف من أنت»، قال المُقيَّد.

دار كيدرومي من حول الهوداهوس المقيَّد، المجرَّد من خنجريه. حَمْحَم من حنجرتِه الباردة: «لا تحتاج إلى شريكٍ يقودك، أو تقوده، إلى النصف الآخر من حلمكما، الآن، أليسَ كذلك؟. كيف يتَّفق لك أن تصل، وحدك، إلى النصف الآخر من حلمك؟»، قال، فردَّ المُقيَّدُ: «أورسين يقودني».

«أورسيْن!!»، حمحمَ كيدرومي بصوتٍ مشروخ. وردَّد: «أتقولُ: أورسين؟».

«نعم. إنه يعرف الممرَّاتِ الدفينة كلَّها. لا يقودني في ممرٍّ واحد، إلى حلمي، مرتين. وكلَّما قادني عثرتُ عليَّ كما لو كنتُ كائناً آخرَ بي حنينٌ عاصفٌ إلى الكائن الذي أعثر عليه؛ أي: عليَّ. أورسين، أبداً، هناك»، ردَّ المقيِّدُ.

«ما معنى هذا الاسم: أورسين؟»، ساءله أكسيانوس، فرد المقيَّد:

ـ لا أعرف. هو يدعو نَفْسَه أورسين.

«ماذا يشبه أورسين، هذا؟، ساءله الكاهن.

«مخلوق يشبه نصفنا الأماميَّ، واقف على ساقين». ردَّ المقيَّد.

لم يعرف كيدرومي إلى من يتضرَّع، في برهته تلك، كي ينجو من هبوب القلق عليه. حصَّن

هايدراهوداهوس بأسوار من حجرِ خياله، كأنما أبصَرها تُقْتَحم بمخلوقٍ من ريح. بينه وبين الريح مواثيقُ الكاهن المروِّض ومواثيقَ المجهول المروِّض. كلما هبَّتِ الريحُ قويةً، من حِصْنِ السماءِ اللامرئيِّ على سهول هايدراهوداهوس، خرج كيدرومي إلى قمة الهضبة التي تحتضن، في جوفها الشاسع، كهوفَ الطواحين المتصلة بممرَّاتٍ واسعة، مُحْتَمِرةٍ من الضياء الآتي عبر الكوى العميقة في الجدران. هناك، مُحاطاً بالفهود التسعة، التي يمسك بسلاسلها العملاقُ تِيْتُونا وأخوه ريْسْمُو، يرفع ابتهالَهُ ـ ابتهالَ هايدراهوداهوس الأزليَّ إلى حقائق اللون العشر أن تتمدَّد السهولَ أبْعَدَ؛ أن تتَّسع أكثرَ؛ أن تتمرَّد على تخومها فتجتاح الجهات؛ أن تستولي على كل أرضٍ تُجاورها؛ أن تضمَّ إلى مُلْكِها كلَّ عراءٍ آخر؛ أن تشقَّ لها معابرَ فوق مياه البحر؛ أن تفتح ـ بمفاتيح النبات ـ خزائنَ الأفق الذي يُحاصرُ كلَّ أفقٍ؛ أن تَلدَ نَفْسَها من أرحامٍ على عَدَد أنفاس الكون؛ أن تُعمِّمَ حقائقَها على الحقائق؛ أن تجمع في حِلْفِها آلهة الرمل، والحجر، والأرض السَّبْخة؛ أن تتَّصل بالسماء؛ أن تصعدَ السماءَ: «أيتها السماءُ السَّهْلُ، يا سماءَ الدُّرة، والقمح، والدُّخْن. أيها السَّهْلُ السماءُ، يا سَهْلَ الغيم المُعْتَصَر من عناقيد كروم الأفلاك»، يدمدمُ كيدرومي، وقد شرَّدتِ الريحُ القوية شَعْرَه، وشاربيه المفرطيْن في طولهما. «سهولُ الإله ـ اللون ستبتكرُ جهاتٍ وراء الجهات؛ أبعاداً وراء الأبعاد؛ وَسَاعةً وراء كلِّ سَاعةٍ. سهولُكَ أيها الإلهُ اللونُ ستقودُ الأُمَّةَ القمحَ، والأُمَّةَ الدُّرة، والأُمَّةَ الدُّخْنَ، إلى انتصار الوجودِ المُشَرِّعِ بعونٍ من عقْلِ السهول».

كيدرومي، الحاذقُ في مَزْجِ رائحته برائحة الفهود في هبوب الريح على سهول هايدراهوداهوس، كان مَنْهُوباً، أشْعَثَ الخيال، وهو يستنطقُ الهوداهوس المُقيَّد: «أورسيْن؟ بأيِّ لغةٍ يتحدث أورسين؟».

«لا لُغَةَ لأورسين»، قال المُقيَّد». «أَلْمَحُهُ، في حلمي، فأتبعُه. إنه مخلوقٌ رحَّالةٌ».

«أنت من ساكني كهوف الهضبات الشمالية، أيها الشقي. لماذا لايُغادر أورسيْن الرحَّالة كهوفكم إلى كهوفنا؟»، سأله أكسيانوس. ردَّ المقيَّد: « حين تؤمن أنك تستطيع أن تكون رحَّالةً أيضاً، مثل أورسين، يحضُرُ أورسين».

صهل كيدرومي فتردَّد صهيلُهُ في طبقات الكهف: «أأنت تسخر مني؟ أستطيع أن أكون رحَّالةً؛ أن أقشِّر الأمكنة بعبور ظلِّي عليها، أيها الشقي».

صهلَ المقيَّد، بدوره، صهيلاً خافتاً مجروحاً: «لا تحفظ الأمكنةُ، كلُّها، لكَ سُلْطَتكَ ذاتُها، أيها الكاهن».

بوغِتَ كيدرومي. أحسَّ الأمكنةَ تُقَشِّرُ ظلَّهُ في عبوره منها. خفَّف نبرة لسانه الفظَّة: «أما من وسيلة، غير مَلَكةِ الرَّحالين، لاستدراج أورسين إلى خيال أحلامنا؟»، قال، فردَّ المُقيَّد:

ـ ما حاجتُك، أيها الكاهن، إلى حُلمٍ كامل؟

«ذلك ما سأسأل نفسي بعد العثور على أورسين»، رد كيدرومي.

«لن تكون لك سُلطةٌ، إذا التقيتَ أورسين، إلاَّ عليك. ستكون وحيداً»، قال المُقيَّد.

«فلاكُنْ وحيداً، لا سلطة لي إلاَّ عليَّ. أعطِني أورسين، أيها الشقيُّ»، قال كيدرومي بصوتٍ فيه صهيلٌ ممتزجٌ بفحيح.

«خُذْ أورسين، إذاً»، تمتم المقيَّد، وأغمض عينيه.

نظر الكاهن إلى أكسيانوس النافدِ الصبرِ وهو يُحَمْحِم حَمْحَمةً فيها وعيدٌ: «ما قصدُ هذا الشقي من قوله: خُذْ أورسين؟».

هزَّ أكسيانوس ذيلَه هزاً قوياً، وضرب بحوافره الأرضَ الحجرَ: «قَلْنُنْهِ هذا الموقف، أيها الهوداهوس الكاهن. الهواءُ يعتصِرُني»، قال.

دار الكاهنُ من حول المخلوق المُقَيَّد: «تقول لي أنْ آخُذَ أورسين. حسناً. كيف آخُذُ أورسين؟».

بقي المُقيَّد على صمته، مُغْمَض العينين. تقدم منه أكسيانوس. سَلَّ خنجرَه الأيسرَ، الذي التمعت شرارة ذهبية على نَصْله. مرَّتِ الشَّفرةُ، ، خَطْفاً، على حنجرة المخلوق المقيَّد. تخبط المخلوقُ في قيوده مصعوقاً. انقلب على جنبيه في محاولته الوقوف دون جدوى. خرج شخيرٌ مصحوبٌ بالدم من حنجرته المقطوعة. استسلم لقضاءِ اللعبة.

تراجع الكاهن قليلاً حتى لا تلمس حوافِرَهُ دفقاتُ الدَّمِ القوية. صارَ إلى جوار أكسيانوس ذي الشعر الأصفر القصير، والعباءة الطويلة الخضراء. غمرَ الصمتُ الكهفَ في الطبقة الثالثة، السفلى. سُمِعَتِ الرَّحى قويَّةً في أنينها، من طبقة كهف الطواحين. سُمِعَ لهاثُ مخلوقات الهوداهوس متهادياً مع الهواء الشاحب، وهم يدورون بالحجارة الدائرية الضخمة فوق بزور الحياةِ ـ القمحِ، والذرةِ، والدُّخن. لمس أكسيانوس عَضُدَ كيدرومي: «أتريد أورسين، حقاً؟»، قال، فوضع الكاهن ذراعيه متصالبتيْنِ على صدره: «أأنت تمزح، أيها الهوداهوس أكسيانوس؟ من هو أورسين؟ أين أورسين؟».

«لنفترض أنك تستطيع استدراجَ أورسين إلى حلمك»، قال أكسيانوس. أرخى الكاهن ذراعيه، حدَّقَ إلى الهوداهوس المقيَّد القتيل: «خيالي مضطربٌ قليلاً ـ خيالُ يقيني. هذا الشقيُّ أثارَ فيَّ حَدْسَ الطِّلَّسْمات»، والتفت بوجهه إلى أكسيانوس: «ماذا لو كانت الوحدةُ، التي يغذِّيها أورسين بزبدة الحلم الكامل، سُلْطةً أكبر مما نملك، أيها الهوداهوس أكسيانوس؟. أشمُّ في الهواءِ تمرُّداً»، قال.

«ليبقَ الأمرُ بيني وبينك، أيها الهوداهوس الكاهن. أنا وأنت، فحسب، سنتتبع ساكني كهوف الهضاب الشمالية. سنختطف أورسين. أخي الأمير ثيوني ليس له صبرُك وصبري. سيقتل أورسين، أيضاً». قال أكسيانوس.

«وصل أورسين إلينا قبل أن نصل إليه»، قال كيدرومي. صهل صهيلاً ممتزجاً بالقهقهة: «هذا المخلوق الواقف على ساقيْن بدأ قفزتَه من خيالك إلى خيالي، أيها الهوداهوس أكسيانوس. تعال نخرج من هنا. غداً سأصغي إلى الريح في مكاشفاتها. لربما تعرف، هي شيئاً من أسرار أورسين».

صعد أكسيانوس، وكيدرومي، الأدراجَ المسطَّحة، الواسعة، في اتجاه المَخْرَج إلى طبقات

الكهوف الأخرى. تقدَّم تيتونا العملاق من جثة الهوداهوس القتيل حاملاً حَبْلاً. لفَّ الحبلَ على النصف الآدميِّ من جذع المخلوق الصامت، وجرَّه، عبر الممر الضيق، الملتوي، المُفضي إلى ضفة نهر سِيْتَام ذي الرمل الأصفر.

وقتاً بعد آخر سيجر تيتونا، بحبله، جثة قتيلٍ إلى ضفة سيتام. سينتظره، هناك، أربعة من حَرَس المخازن الأقوياء. سينقلون الجثثَ إلى طَوْفٍ فوق الماء. سيتولى إثنان، وهما جالسان، دَفْعَ الطوف بمجذافين إلى أحراش القصب، في ملتقى نهر سيتام ببحيرة سَايْدِيْن ذات الضباب المؤرَّق. سيحرقون الجثث هناك، وسيلقون بالرِّمَمِ والرماد في الماء المُوْحِل.

سيعتقد أهلُ كهوف الهضبات الشمالية أن تيتونا، ومعاونيه من حَرَس المخازن، يختارون عمَّالاً للمطاحن، أو حرَّاثين للسهول الشرقية، أو مُرَمِّمِيْنَ للأعمدة في الكهوف الكبرى، المحيطة بالكهف الأعظم ـ «الكهفِ العقل»، كما يسميه حَرَسُ الأمير همساً. لكنهم سيلحظون أن مَنْ يُؤْخَذ لا يعود. سينمو هَلَعٌ مستورٌ كثمرةٍ على شجرة الريح القادمة من السماء الثانية ـ سماءِ المجهولِ الكسولة. سيوسِّطون بعضَ الأعيان، من المحاربين الكهول، لرقْعِ قلَقهم إلى الكاهن، عبر صور حروفٍ منحوتةٍ على الآجُرِّ الرَّطب، غير المشويِّ. سيراوغ الكاهن كيدرومي مراوغةَ لسانِ المعقول: «إن مات أحد، في أيما مكان من هايدراهوداهوس، تظهر جثته في أخدود تاييسَ محنَّطةً بنعمةِ ريحِ الجفاف. من ليست جثتُه هناك فهو، إذاً، حيٌّ». سيتقصَّى البعضُ، من أهل كهوف الهضباتِ الشمالية، أحوالَ الموتى في أُخدود تاييس، لكنهم سيرجعون بلا نبأٍ عن مفقود واحد: لا جثث لهم هناك. سيُحارون. سيتبلبلون. أما أرواحُ المفقودين، الممتزجة بأرواح القصب، وحشرات الدعاسيق، واليَسْرُوع، والسُّرْمان، فهي ستتقدَّم ـ محمولةً على دخان المَحْرقة ـ إلى أخدود تاييس.

خيال تِيْتُونا

ناعماً تماوَجَ هَسِيْسُ القِلادات في مخدع الأميرة أنيكساميدا. الخادماتُ الثلاث، اللواتي بزَغْنَ مع شعاعات الفجر في ممرات الكهف الزمرديِّ الحجر، أحضرْنَ الأمشاطَ والمرايا لسيدتهنَّ، بعد خروج الأمير إلى المقصورة الخاصة بتأمُّلات الفجر ـ تأمُّلاتِ النظر إلى البلورة السوداء، السداسية السطوح، المنتصبة على عمودٍ صغير من اليَشْب ثابتٍ فوق مصطبة صخرية. أَعَدْنَ ترتيبَ جدائلها الستِّ المائلة إلى الزرقة، وربطن إلى خُصَلٍ من شَعْر ذيلها سلاسلَ الفضة الرقيقة، والوَدَع الأصفر. عاد الأمير فنهضت الخادماتُ من حولِ سريرها الدائري. رفعن مراياهُنَّ أمام وجهه ليستطلع في عينيه أدراجَ الليل. لم ينظر إلى نفسه في المرايا، بل إلى صدورهن المحجوبة بقلادات من الخرز تتدلى من أعناقهنَّ: «هَسِيْسُ قِلاداتكنَّ هسيسٌ منعشٌ»، قال، فتضاحكن. التفت إلى زوجته: «ماذا تفعل خادماتك كي يُبْقِيْنَ أثداءَهن ناهدةً، ناتئةً، أيتها الهوداهوس الأميرة؟».

رمتْه الأميرةُ بمشط في يدها. صهلتْ متوعِّدةً. صهل الأمير ضاحكاً. تكلَّمت الأنثى

الجالسة على سريرها: «خيالُ كُهُولٍ مثلك يجعل أثداءهنَّ ناتئةً، وهي ليست ناهدةً ناتئة».

أبدتِ الخادماتُ عتاباً صامتاً. حَمْحَمْنَ. تجاهلتِ الأميرةُ إشارتهنَّ. نطقتْ: «ثدايَ ناتئان أيضاً. أرضعتُ ستَّ بناتٍ من صلبك، وما زالا ناتئيْن، صلبيْن، لكن خيالَك يُهَدِّلُهُما».

عاد الأمير ببصره الجريء إلى صدور الخادمات، اللواتي تدلَّتْ تحت آباطهن خناجرُ متماوجةٌ كأحناش الربيع السوداء: «أنتِ زوجتي، أيتها الهوداهوس الأميرة. ثدياكِ أمرٌ آخر»، قال، فصهلت أنيكساميدا صهيلَ الاستنكار: «وأنت زوجي، أيها الهوداهوس الأمير. انظُرْ إليَّ بخيال قُبْلتكَ الأُولى على جسدي».

دخلت بناتُ الأمير الستُّ، البلقاوات كأمهنَّ، إلى الكهف الزمرديِّ الحجر. دغدغ بعضهنَّ خواصر الخادماتِ مُداعَبةً. إحداهنَّ اقتربت من أبيها بقفصٍ فيه ثلاثٌ من حَمَام الزاجل ـ الحَمامِ الرسول بين الأمير وقوَّاده في مقاطعات هايدراهوداهوس. هزَّ ثيوني رأسَه: «لن أبعث برسائل إلى أحدٍ اليوم. تأملتُ البلورةَ السوداء فلم تنشر على خيالي صوراً أستنْطِقُها». ابتسم: «أنتِ في السادسة الآن، يا ابنتي تارُوْسْ. عليكِ أن تختاري زوجاً في الخريف القادم».

في السادسة يتزوج مخلوق الهوداهوس. يكتهل في العشرين. يشيخ في الثلاثين. إنْ لم يمتْ ضَعْفاً، أو مصادفةً، حتى الحادية والثلاثين، حمل معه حدوةً من حدوات أمِّه الميتة، ومضى إلى أخدود تاييس. ريحُ الجفافِ الصاخبة، في هبوبها العريق، تنجزُ النُّقلة الباقية إلى الصمت العريق.

فكَّر ثيوني في اكتهاله قليلاً. داعب رؤوس بناته بيده فأسْقط عنها قبَّعات الريش الصغيرة. «لماذا تعكسني المرآةُ على نحوٍ لا أرى نَفْسي عليه؟»، قال، وأخذ من إحدى الخادمات مرآتها. تطلَّع إلى وجهه. «لا أرى ضجري».

قرب خِوان الإفطار، حيث اجتمع الخلصاء، والأُمناء، وأعيانُ إدارة الكهف الأعظم، ذلك الصباح، تحسَّس الأمير كيساً من جلدٍ أصفر بيديه، مُلْفتاً أنظارَ الجُلساء. دار ببصره عليهم واحداً واحداً، حتى استقرَّ على الفَلَكيِّ الشاعر ميْدْراس: «أتستطيع أن تخمِّن ما في كيسي هذا، أيها الهوداهوس ميدراس، الناطق بلسان العِلْم الكُلِّيِّ؟». حكَّ ميدراس رأسَه ذا الشَّعر المنتصب كعُرْف الديك. تكلَّم: «في الأرجح إنها صورتُك، أيها الهوداهوس الأمير».

«تعرف كيف تنجو، أبداً. كلُّ شيءٍ قد يكون صورتي»، قال الأمير.

«أعذرونا. لم نفهم»، قال كيدرومي الجالس لصق ميدراس. رَبَتَ ميدراس على عَضُد الكاهن الموشوم بأرقام المعاني المؤَجَّلة: «ما تفهمه، وما لا تفهمه؛ ما يكون فراغاً أو امتلاءً؛ ما يكون بُعْداً أو قُرْباً؛ ما يكون نهايةً أو بدايةً؛ ما يكون ظناً أو يقيناً؛ ما يكون عبارةً أو إشارةً؛ ما يكون وما لا يكون: كلُّها صورةُ الأمير».

فتح ثيوني الكيس، واستخرج منها المرآة الصغيرة، ذات المقبض الخشبي، التي استعارها من إحدى الخادمات: «هذه صورتي»، قال. تطلَّع إلى وجهه، ثم أدارها على الجلساء: «ترون صورتي». صَهَل صهيلاً خافتاً. «لماذا لا نُقْسِمُ بالمرآة؟».

حَمْحَم الجالسون استنكاراً. «لا نقسمُ بغير اللون»، قال عميدُ خزائن الأسلحة ـ الخناجر.

«ما اللون؟»، سا ءلهم الأمير، وهو يمضغ زهرةَ قَرْعٍ مخلَّلة.

«أنت عاصِفٌ. روحُكَ عاصِفةٌ، هذا الصباح، أيها الهوداهوس الأمير»، قال عميدُ خزائن الأسلحة ـ الخناجر.

تدخَّل ميدراس: «اللونُ هو المصادفة أيها الهوداهوس الأمير».

«ماذا تقول، ايها الفلكي ميدراس؟ أنحن نُقْسِمُ بإله هو المصادفة؟»، قال الكاهن كيدرومي، وحَمْحَمَ ممتعضاً. قرَّب ميدراس رأسه من رأس كيدرومي. كلَّمه همْساً وهو ينظر إلى الأمير: «رأيت شاعراً في حلبة سباق الكهوف الغربية يشبه الأمير على نحوٍ أخافني».

«بِمَ تتهامسان؟»، سا ءلهما ثيوني، فرد الكاهن وهو يمدُّ يده إلى أوراق الكراث: «الهوداهوس ميدراس ينحتُ التورياتِ».

وجَّه ثيوني بصره إلى ميدراس: «اللون هو المصادفة؟ هذا إلهامٌ فلكيٌّ». حَمْحَمَ: «أنت على صوابٍ. المصادفةُ تجعلنا سعداء أو أشقياء، محظوظيْنَ، أو منحوسيْن، خاسريْن، أو منتصريْن».

«أنتَ عاصفٌ، أيها الهوداهوس الأمير. روحُكَ تنحرُ الصباحَ نَحْراً على خِوان الإفطار»، قال عميدُ خزائن الأسلحة.

حدَّق إليه ثيوني. توقَّف عن المضغ. «إصْغِ»، قال بصوتٍ فيه توبيخٌ: «ما من شيء يتجلَّى فيه اللونُ بكماله إلاَّ المرآة. إنها نَفَسُ اللون، ونَبْضُ اللون، ودورةُ اللون الفلكية من بزوغ العناصر حتى أُفولها. سَأُقْسِم، منذ اليوم، باللون، وبالمرآة، وبالمصادفة».

صهل الكاهن كيدرومي صهيلاً مُختنِقاً، فقاطعه ثيوني بصهيلٍ صاخب: «ما اتِّفاقُنا، أيها الهوداهوس الكاهن؟ ستسرد لي، أنت وتابعك تيتونا، حُلماً تشاركتُما فيه»، والتفت صوب الجدار الشمالي للكهف، حيث يقف العملاق تيتونا على مقربة من الحَرَس. فهم تيتونا الإشارة. تقدم حتى قارب الكاهن الجالس قرب الخوان. جلس بدوره. سادت الحمحماتُ المتقطِّعةُ برهةً، ثم خَمَدتْ. ترقرقتْ في العيون المرتبكة مرارةُ إرثٍ ظلَّ غيرَ مروَّضٍ؛ سرّاً من أسرار هايدراهوداهوس، وها هو يوشك على الخضوع للسرد الثرثار. «أعلينا أن نفعل هذا، أيها الهوداهوس الأمير؟»، قالت أنيكساميدا في لوعة. أطلق ثيوني حَمْحمةً ناعمةً: «لقد سردنا، مرَّة، لخُلصاءِ الكهف الأعظم حلمنا، أنا وأنت، أيتها الهوداهوس الأميرة. ليس هناك ما يخيف». مسحَ يديه بطرف عباءته القصيرة. «ها نحن نصغي، أيها الهوداهوس كيدرومي، كاهنَ الطواحين». وضع يده اليسرى على مقبض خنجره: «كاهن الطواحين، وكاهن الصباح، أيضاً». صهلَ في مَرَحٍ.

نطق تيتونا العملاق البنِّيُّ الداكن، ذو العباءة السوداء الطويلة. اهتز شارباه بقوة من عبور صوته الخفيض المرتجف ـ صوتِ التابع الذي لم يتعوَّد الكلام إلاَّ همساً: «كنتُ في أرضٍ عراءٍ. لا شجر. لا حجر. قطيع هائل من الثيران البيضاء شقَّ الأفقَ. تكسَّرتِ السماءُ كلوح زجاجٍ، هذا ما رأيتُ»، قال تيتونا.

تلمَّس كيدرومي، براحتَيْ يديه، شاربيه الشبيهين بنابي خنزير بريٍّ: «كنتُ أنادي تيتونا أن يحيد عن طريق القطيع فلا يسمعني. ثم، فجأة، ارتفع القطيع في السماء، من فوق تيتونا بعدَّة أذرعٍ. وكنتَ انتَ، أيها الهوداهوس الأمير، من يقود تلك الثيرانَ إلى حظائرها بين الغيم».

حمحمَ ثيوني حمحمةً خافتةً. نقلَ بصرَهُ عن وجه الكاهن إلى وجه الفلكيِّ الشاعر: «أيها الهوداهوس ميدراس، أفي علومك تأويلٌ لحلم كهذا؟».

«لم أسمع أحلاماً كي أُأوِّلها، أيها الهوداهوس الأمير. علومي رهينةُ مزاج الأفلاك، وطباعِ الأبراج السماوية»، قال ميدراس.

صهل ثيوني معترضاً: «المِزاج؟ علومُك ليست رهينة مصادفاتٍ، أيها الهوداهوس ميدراس. علومُك ميزانٌ»، فردَّ ميدراس: «للأفلاك مِزاجُها، وللأبراج السماوية مزاجُها. المزاجُ مقادير».

«ظننتُ المزاجَ من خصائص مخلوقات الهوداهوس. وها أنت تضع الفَلَك والأبراجَ في ميزان الأشعار، أيها الهوداهوس ميدراس»، قال ثيوني.

«الأشعارُ موجودة في ميزان الفَلَك، أيها الهوداهوس الأمير»، ردَّ ميدراس الأسود الجلد، الأشقر الشعر، والأبيض الذيل. صهلَ صهيلاً خافتاً: «طالما تقصَّيتُ لكَ، أيها الهوداهوس الأمير، آثارَ العقل الذي يبتكر للكهوف مزاجاً مُقْتَبَساً من مزاج الأفلاك. أحوالُ الكهوف ذاتُها هي أحوالُ الأفلاك. كهوفُ هايدراهوداهوس نظامٌ من نُظُمِ المُخاطَبات؛ مَنْطِقُ لونٍ، وشرائعُ لونٍ. هي صورُ الأبراج منقولةً عن لوح الهباءِ السحيقِ ـ الهباءِ المتدليِّ من بَكَرةِ المركز، هناك»، وأشار بعينيه إلى مقصورة تأمُّلات الأمير، حيث تنتصب البلورةُ السوداء، السداسية السطوح، على عمود من اليَشْب.

اختلطَ صَخَبٌ قادمٌ من رواقٍ في الكهف الأعظم بكلمات ميدراس، وتدحرج صهيلٌ غاضبٌ مع الهواء المذعور. حدواتٌ كثيرةٌ سُمِعتْ تقرع الأرضَ الصقيلةَ الحجرية قَرْعاً له طَعْمُ الفوضى. نهض تيتونا العملاق ويداه على مقبضَيْ خنجريه. تململ حَرَسُ الأمير. حمحموا من غير أن يغادروا أمكنتهم.

دخل إلى كهف الإفطار عميدُ حَرَس الحدائق الحجرية. خَلَعَ خوذتَه السوداء: «المعذرة أيها الهوداهوس الأمير. حصلت حماقةٌ جرى تصحيحُها. أمرٌ عابرٌ. نرجو ألا يكون الصخب قد أفسد عليكم هدوءَ روحِ الصباح».

نهض الأمير مصحوباً بصهيلٍ فيه فضولٌ رقيقٌ: «سأرى». فتقدَّمه حاملُ الخبر إلى رواقٍ منفصل عن الإيوان الشرقي من الكهف الأعظم. كثيرٌ من خلصاء ثيوني تتبعوه، حتى أشرف على المُدرَّج المفضي إلى دائرة النوافير، في مدخل الحدائق الحجرية، حيث تنتصب المنحوتاتُ المتناظرةُ لهياكل لها أنصافُ طيورٍ وأنصافُ ثيران؛ أنصافُ نمورٍ وأنصافُ أسماك. تماثيلُ من حجر اليَشْب، ومن عروق المرجان الضخمة المُسْتخرجة من بحر ثالِيْل الهائج، ومن اللازورد، ومن حجرٍ يؤتى به من مغاور الرمال، ذي فلزٍ أخضر وبرتقاليٍّ، يختزنُ نورَ النهار فيضيءُ في

الليل.

تقرَّى الأميرُ بعينيه سطورَ الدَّم المتقاطعة على أطراف التماثيل. ثُلَّة من الحرس كانت تنظف خناجرَها، لاهثةً: عراكٌ مَّا تركَ أثرَه على رمل الحدائق، ومزجَ الهواءَ بأنفاس الخوف.

هرع اثنان من الحَرَس يجمعان كراتٍ سوداء عن الأرض، ملطخةً بالرمل وبالدم. صهلَ ثيوني: «أهذه خُصىً، أمْ أنا واهِمٌ؟»، قال، فرد عميد حرس الحدائق الحجرية: «بل هي خُصىً، أيها الهوداهوس الأمير. أربعةٌ حاولوا اجتياز مدخل الكهف الأعظم. صَدَمَهم الحرسُ. طوَّقهم. قُطعتْ خُصاهم وأذيالهم».

«أين هم؟»، ساءله الأميرُ، مُحَمْحِماً، فرد العميد: «شُرِّدوا خارجَ الحدائق. سيعيشون في عارٍ».

صهل ثيوني صهيلاً غاضباً: «كيف اجتازوا المَراصِد حول الحدائق الحجرية؟ كيف اجتازوا دَغْلَ الخناجر؟. لقد وصلوا إليَّ، أيها الهوداهوس العميد. لقد وصلوا إليَّ»، قال، فاهتزت شوارب المحيطين به من عبور أنفاسِه القويةِ ـ أنفاسِ الوعيد.

«كانوا يصرخون أنهم سيذبحون تيتونا، أيها الهَوداهوس الأمير. لم يكن في تهديدهم مساسٌ بك»، قال العميد، فصدمَه ثيوني بصدره صدمةً أفقدتْه توازنه: «تيتونا كان في الكهف الأعظم. كادوا يصلون إلى الكهف الأعظم. كادوا يصلون إليَّ. حبذا لو قطع الحرسُ خصيتيك، وأضافوه إلى خُصى الأشقياء»، قال ثيوني. صمتَ وهو ينظر إلى أذيالٍ مقطوعة، مدمَّاةٍ، في أيدي الحرس. صهل من جديد: «كانوا يريدون الهوداهوس تيتونا؟!!!». التفت إلى الكاهن: «أهنالك شيء مَّا عليَّ أن أعرفه، يا كيدرومي؟». نَطقَ اسمَ الكاهن بلا لقبٍ.

«إنه ذنبي، أيها الهوداهوس الأمير»، قال تيتونا، مقترباً من ثيوني في خضوعٍ. حَمْحَمَ حَمْحَمَةَ المُعْتَرِف: «لم ألجمْ لساني البارحة. تفوَّهتُ أمام رواد حانة السوق الأوسط بأنني سأسرد عليك نصفَ حلمي. غضب أحدهم. هدَّدني. لكنني لم أحسبْهُ جاداً. قويٌّ مثلي لا يجرؤ الرعاعُ على تهديده. أطلبُ منك ما أستحقُّ على هَفْوَتي».

رفع ثيوني يده. أوقفَها في الهواء قليلاً، ثم أنزلها. «إنصَرِفْ أيها الهوداهوس تيتونا»، قال متسامحاً، فأحنى العملاقُ البنيُّ رأسَه امتناناً. نظر كيدرومي، جانبياً، إلى أكسيانوس. ابتسمَ خيالُهما من دهاءِ تيتونا غير المعهود.

حوافر خانياس

دار المهرج خانياس حول نفسه، أمام المصطبة الحجرية الشاسعة، العالية، التي جلس عليها ثيوني وحشدٌ من خُلصائه المقرَّبين. صهل بقوَّة لكن صهيلَه ضاع في الغبار الذي أثاره الهوداهوس الشعراءُ، المتسابقون، حين عبروه بقطيعهم المندفع كريحٍ أخدود تاييس. هدأ الغبار بعد قليل. سعل خانياس. سَلَّ خنجريه، في وقوفه على أرض حلبة السباق: «أيها الهوداهوس الأمير، لديَّ ـ أنا أيضاً ـ شِعرٌ كتبتُه للجميلة أنستوميس، سألقيه عليكَ أنتَ»، فرماه ثيوني بِعِرْناسِ

الدُّرة الذي في يده: «لم تَعُدْ مُسَليّاً، يا خانياس»، قال.

قطع الشُّعراءُ الشوطَ الأول من سباقهم. عبروا المصطبةَ التي عليها الأمير، فغطوا خانياس بالغبار، وبالكلمات الصاخبة كحوافرهم. تقاطعتْ سطورُ الهواءِ المندفعةُ من رئات الراكضين لاهثةً، متشقّقةً. هُمْ شعراءُ لن يتوقفوا عن إلقاءِ أشعارهم، في السباق المحموم، حتى آخر نَفَسٍ يستطيعون حَمْلَ الكلماتِ عليه. من تختنق حنجرتُه، من الإعياء، ينفصل عن السِّرب الراكض. يستند إلى جدار المُدَرَّج الشاسع، أو ينهار أرضاً.

«أنستوميس..»، صرخ خانياس في بلاهة، فرماه ثيوني بعرناسٍ آخر من الدُّرة المشوية: «هي ليست هنا، أيها المعتوه»، قال. ركع خانياس على ركبتَيْ قائمتيه الأمامتين: «بل هي هنا، أيها الهوداهوس الأمير»، وأشار إلى قلبه.

«أنت مُضْجر، يا خانياس، قلبُك مضجرٌ»، قال ثيوني. التفت إلى زوجته أنيكساميدا: «انظري إلى أخي وزوجته هناك». تطلعت الأميرة إلى الزوجين الجالسين في مقصورة صغيرة، منحوتة في حجر المُدرَّج. «ما بهما؟»، سألتْهُ، فقال ثيوني: «كلٌّ منهما يتكلم في البرهة التي يتكلَّم فيها الآخر».

«لا يريد أحدُهما أن يسمع الآخر»، قالت أنيكساميدا.

«أنحن نفعل ذلك، أيضاً؟»، سألها ثيوني.

«لا. لأننا لا يتحدث أحدُنا إلى الآخر»، ردت أنيكساميدا.

«تأمَّلها ثيوني مستنكراً: «ما هي، إذاً، هذه الثرثرات بيني وبينك في المَجَالس؟»، ساءلها، فردتْ: «هي ما نريد أن يسمعه الآخرون».

صهل ثيوني: «سنتحادث، إذاً، بصوتٍ منخفضٍ في مَجَالسنا»، قال، فردت الأميرة:

ـ لن يسمع أحدُنا الآخرَ.

«كيف أستطيع إرضاءَكِ بحقِّ اللون الإله؟»، ساءلها ثيوني متذمِّراً، فردت أنيكساميدا وهي تطرد بمروحةِ يدها ذُباباً عنيداً: «أَوْقِفْ ضجرَك».

تنهَّد ثيوني. أطلقَ صهيلاً خافتاً: «لن يتوقف إلاّ إذا تمرَّدتْ هايدراهوداهوس عليَّ». ثم ضحك وهو ينظر إلى خانياس. ضحك خانياس وهو يرى الأمير ضاحكاً. قرع الجرسَ المعلَّق إلى رقبته.

بَقي الأمير على ضحكه. التفت إليه الخُلصاء يظنونه مبتهجاً من حركات خانياس. علا الغبار حين مرَّ سربُ الهوداهوس الشعراء وقد نَقَص عدده. تمتم ثيوني: «كلكم مضجرون».

مَدَى شهرٍ استمع ثيوني إلى أُمناءِ إدارة الكهف الأعظم، والخُلَصَاءِ المقرَّبين، وهم يسردون عليه أنصافَ أحلامهم، ساعةَ الإفطارِ في الصباح. شركاءُ مُخْتَلَطون: بعضهم مع زوجاتهم. بعضهم مع أبنائهم. بعضهم مع حرسهم. إناثٌ مع إناث. ذكور مع ذكور. الأقربُ مع الأقرب في صداقته. كل اثنين يتشاركان في البوح بحلمٍ واحد: حرائقُ يطفئها الأميرُ. سهولٌ تتمدَّد، بلا نهاية، في عبور الأمير عليها. أبراجٌ تتمايل من نظرِ الأمير إليها. طيورٌ تحمل رسائل الولاءِ

من جهاتٍ ما بعد الغيم. السماءُ تضيقُ أضيَقَ من حدواته، وظلُّه هو ظلُّ الأرض. كل صاعقةٍ هي قلبُ الأمير. كل برقٍ مشورةٌ يقدِّمها للسحاب بسخاءِ حكمته.

أكلَ الأمير، في إصغائه إلى أحلام الأعيان الكبار، من زهر القَرْعِ المخلَّل، ما لم يأكله، من قبل، في سنين. صعد خلُّ الدُّراق الفجِّ مع دمه، صباحاً بعد آخر، إلى خياله المنتشر عروقاً حمراء بين تلافيف دماغه. تبدَّل لسانُه من لحمٍ إلى خلٍّ: كلماتٌ حامضةٌ تتناثر في كل مكان: «مَنْ منكم سيُبْهِجُني بحلمٍ يراني فيه أخسَرُ ما لم يخسره أحد؟ أتوسَّلُ إلى أحلامكم أن تتدبَّر لي خسارةً أربحُ بها أملَ الخسارة».

لا أحد تجرأ أن يأتي إلى ثيوني بحلمٍ أقلَّ نقاءً من ذهب حدواته.

عَبَرَ الشعراءُ المتسابقون، بسطور غبارٍ حوافرهم، تحت بصر ثيوني المثبَّت على خانياس. أحسَّ خانياس برعدٍ في جسده.

في اليوم التالي على سباق الهوداهوس الشعراء، دعا الأميرُ أعيانَ أرضِ هايدراهوداهوس إلى عشاءٍ في كهف الولائم ذي الزوايا التسع. ستة وأربعون خواناً واطئاً من المرمر الأسود، أنصافَ دوائر، توزَّعتْ، في حلقة واسعة على أرض الكهف. كل ضيفٍ أخذ مجلسَه أمام خِوان منها يسع ستة صحون من الفخار، وإبريقاً آجُرِّياً مليئاً بنبيذ التوت الأبيض. في وسط الحلقة مائدة مستطيلة من الصوان ذي عروق الفلز الأصفر والقرمزي. فوق المائدة سلالُ الفاكهة والخضار تنقلُها الخادمات إلى صحون الضيوف، مبتسماتٍ للأنظار ترترف على رسوم الحِنَّاء على صدورهنَّ العارية ـ رسومِ طائر الرَّهْو فارداً جناحيه على الأثداء، منتصباً على ساقيه النحيلتين النازلتين حتى السُّرَر.

دخل عازفو القيثارات الصغيرة. صهلوا صهيلاً فيه أنفاسُ غناءٍ. عزفوا على آلاتهم مارِّين من وراء الضيوف الجالسين. دخل طاهيان من ذوي القفازات الجلدية الحمراء. تقدَّما من الأمير الجالس، بدوره، إلى خِوانٍ صغير كالآخرين. ركع أحدهما على ركبتيه الأماميتين. همس بكلماتٍ، فأعطاه ثيوني إشارة الموافقة. تراجع الطاهي ناهضاً. أومأ إلى الخادمات أن يُبعدن سلالَ الفاكهة والخضار عن وسط المائدة الضخمة إلى أطرافها، فأبعدتِ الإناث السلالَ، على وَقْع أثدائهن الممتلئة عافيةً.

صهل الطاهيان صهيلاً خافتاً فيه وسْوَسةٌ لا تكون إلاّ في حناجر الطهاة المخصيِّيْنَ في عموم هايدراهوداهوس: يخصونهم كي يشرِّدَ النسيانُ شهواتِ خيالهم إلاَّ شهواتِ ابتكارِ ممالِكَ من النكهات، وشرائعَ من قُدْسيَّة الطَّعْم.

عبرَ صهيلُ الطاهين، ذَوي الحناجر الأربعة البيضاء المقابض، إلى رسول الإشارة الأخيرة، الواقف في ممرِّ المطابخ. أعطى الرسولُ الإشارةَ فتقدم ستةٌ من الهوداهوس بمِحَفَّةٍ كبيرة، دائرية، على جنبين منها ستُّ حلقاتٍ من الحديد تستعين بها الأيدي على رفعها. أوصلوا المحفَّةَ إلى المائدة الصوَّانِ الضخمة فوضعوها في منتصفها. سقطت سلّتان من الخُضار فهرعت الخادماتُ إلى جَمْعها.

هَرَمٌ، أو ما يشبه هَرَماً كبيراً، انتصبَ فوق المِحَفَّة، مغطًّىً بغطاءٍ من نسيجِ القصب أشبه بقُبَّة. صعدتْ روائحُ الشواء. صَعَد جِدالُ التوابل الخفيِّ - جدالُ العصورِ الناضجة بتعاليم النار ذات المراتب العَشْر.

بَلَّلَ الترقُّبُ الشهيُّ ألسنة الضيوف، ووزَّعتْ نكهةُ الشحمِ الذائبِ حصَصَ خيالها عليهم.

أومأ الأمير إلى الهوداهوس الستَّة أن يرفعوا القُبَّةَ القصبَ، فرفعها اثنان منهم بحركة سريعة. بانَ الهَرَمُ الذي كان تحتها.

علا الصهيلُ في كهف الولائم ذي الزوايا التسع. نهضت الأميرةُ وهرولتْ هاربةً. نهض الكثير من الضيوف مصعوقيْنَ، وارتدَّ الآخرون عن الأخْونَةِ وقد بُهِتُوا: إنها جُثَّةُ خانياس مشويةً على المِحَفَّة، جالسةً في كامل هيئتها. الجرسُ في عنقه، والحدوةُ على جبينه. تحت إبطيه خنجراه. أسنانُه عاريةٌ تقلَّصتْ عنها شفتاه. في فمه غصنٌ ذو ورقٍ كثيف، ومن حول هيكله الجالس دائرةٌ من البط والحَمام المشويَّيْن. قهقه ثيوني: «انْظُروا إلى حوافره. إنه يرتدي حدواته»، قال، ثم صهل صهيلاً موحشاً: «لم أعُدْ أتذكَّر متى كان خانياس مُضْحِكاً. ها هو مُضْحِكٌ، أخيراً».

تَايِيْسْ

أخرجتْ أنستوميس قطعة حجرٍ من كيسها الخشن المعلَّق إلى كتفها. تماوجتْ جدائلُها السوداء العشرون في عبور الريح الجافة - ريحِ الرمالِ النَّزقة. أمسكتْ بعقد الخرز والودع الذي يغطي صدرها بكثافته كدرع: «أيةُ لوعةٍ شَلَّتِ الوجود فلم يُنجزْ أشكالَكم؟»، قالت، وهي تتفحص أثرَ النحت في قطعةِ الحجر المُهَشَّمة. حادتْ قليلاً عن مجرى الريح، محتميةً بجدار الصَّدْعِ في أخدود تاييس.

لا تعرف أنستوميس ما الذي قادها من نزهتها على ضفاف بحيرة سايْدين إلى أخدود تاييس - أخدود موتى الهوداهوس المنتصبين وقوفاً هياكلَ متحجرةً من جفافها. على جانبَيْ صَدْعِ الأخدود العميق جثثٌ تكاد تتشابه ألونها، التي بهتتْ تحت أنفاس الشَمس القوية وأختِها الريح. كلُّ مخلوق محتضر، من الهوداهوس، يجري إيقافُه على قوائمه باستقامةٍ، مسنوداً بقضبان الخيزران القوية فلا يتراخى إذا استسلم للموت. يبقى الهيكلُ، بعد الموت، محتفظاً بتوازن أعضائه، فيُنقَلُ إلى أخدود تاييس ليجفَّ واقفاً. الهياكل، التي فقدت بعضَ قوائمها، أو تهشَّمتْ أعضاؤها بموتٍ عنيف، يتم ترميمُها بأعضاء منحوتةٍ من حجرٍ يُلائم لونَ صاحبها.

كل شيء، في تاييس، نَقْشٌ من رضا الموتِ عن نَفْسه.

خارج تخوم هايدراهوداهوس، غَرْباً، صعيدٌ من الرمال المُنبسطة تتَّصل نهايتُه بالمدخل الحجريِّ إلى أخدود تاييس. عَرْضُ الأخدود أكثر من خمس وعشرين ذراعاً، بين جدارين من الحجر عاليَيْن، ربما كانا، في وقتٍ من عُمْرِ المياه، ضفَّتي نهر صاخب ترك أثراً في عزيف الريح

في الأخدود، الذي لا يعرفُ المجهولُ ذاتُه مَحْرجاً منه.

تدحرج الصدى الخافتُ لحدوات أنستوميس الفضَّةِ بين هياكل الموتى. ظلَّت عيناها على قطعة الحجر ذات الرسوم الغريبة، في يدها. كانت تمشي في الأخدود المتعرِّج بعيني قلبها، وذاكرة حوافرها. عبرتْ فرسخاً من الهياكل الجافة، المنتصبة على الجهتين. بلغت المقاطعة التي تجاورت فيها مومياءاتُ فصيلها، واحدةً لصقَ الأخرى: كانت القرون الصغيرةُ، الصفراء، في الجباه، أكثر نقاءً من شعاعٍ أصفر مُحْتَبسٍ خلف غيمٍ شفيف.

توقفت أنستوميس عند جثة الهوداهوس ديْجيْنُو، آخر حاكم لفيفلافيذي ـ مكتبةِ الصور في هايدراهوداهوس، قبل أن تتسلَّمها هي. رفعَتْ قطعة الحجر المكسورة إلى وجهه: «أرأيتَ مخلوقاً أكثر قلَقاً من هذا؟. تائهٌ في البحث عن ذاكرةٍ لا يريدها. قلِقٌ بلا ذاكرة. كيف يقلقُ من لا ذاكرة له، أيها الهوداهوس ديجينو؟ حلمُه حلمٌ بلا نهاية، أهو يحلم حلماً بلانهاية؟ كلما نظرتُ إلى هيكله الواقف على ساقين فقط. أفقد توازني. لم يحدث لي ذلك وأنا أنظر إلى الطيور واقفةً على ساقين. له رأس مثلنا، وذراعان مثلنا، وصدر مثلنا، وبطن مثلنا، ثم كأنما قُطِعَ ذلك النصف الأماميُّ الشبيه بنا عن بقية الشكل الذي نحن عليه، وأضاف إليه النحاتون فخذين لا تشبهان أفخاذنا، وساقين لا تشبهان سيقاننا: مخلوق بلا حوافر، أيها الهوداهوس ديجينو. لكنني سأعطيه حافريْن، من خيالي، كي لا يتألم في تجواله بين كهوف هايدراهوداهوس. وسيكون، هو، شريكي الذي أقاسمه حلماً واحداً».

مسحت قطعة الحجر براحة يدها تُزيل عنها غباراً لا مرئياً. هزَّت رأسَها مستدركةً أنها ـ ربما ـ أخطأت التقديرَ: «أيستطيع أن يحلم نصفَ حلم، هذا الذي يحلم حُلْماً بلانهاية؟ أحُلْمُه الذي بلا نهايةٍ هو نصفٌ عليَّ أن أتمِّمه؟ لا. حلمٌ بلا نهايةٍ هو حلم كاملٌ. سأتبعُه؛ سأتبع شريكي الرحَّالةَ في أرض ذاكرته المفقودة. سأعود مخلوقاً مفقوداً يستعيد مخلوقاً مفقوداً. وسأسمي هذا الذي أعثر عليه، في تجوُّلي بين حدائق نسيانه، باسم أورسين».

أنستوميس لم تملك، قط، شريكاً تُتِمُّ له نصفَ حلمه، ويُتِمُّ لها نصفَ حلمها. انقرض فصيلُها من «حمى القرائن» قبل بلوغها العمر الذي تختارُ فيه شريكاً ويختارُها شريكٌ ليتقاسَمَا، بخيارِ المؤالفة، أجزاءَ الرسوم النافرة على لوح النوم، إذا أنجزَ النومُ لهما رسوماً. ظلَّتْ وحدها في دورة النصف الواحد من حُلُمٍ نصفٍ لم يتغيَّر المشهدُ فيه قط: ترى نَفْسَها ماشيةً باتجاه مَخْرَج أخدود تابيس؛ ماشيةً بلا جدوى في العثور على مخرجه، فتكاد تختنقُ، فتفيق. كلَّما حلمتْ أنستوميس كان ذلك هو نصفُ حلمها، متكرِّراً كسقوط قطرة ماءٍ من سقف كهف، برهةً بعد أخرى، عبرَ الزمن المتجانسِ والمُتَنَافرِ كلِّه، على صخرةٍ ملساء.

قرَّرتْ أنستوميس ألاَّ تنام: طَحنَتْ بزرةً من بزور الطبائع في جُرْنِ جسدها، كي لا تنمو البزرةُ إنْ سقطتْ في رطوبة الحقائق.

أنستوميس لم تعد تبارح كهف فيفلافيذي، في الليل. تحمل فانوسَها القويَّ وتدور، بأمومةِ بصرها وخيالها، على الرسوم النافرةِ والغائرة. تستجليها، وتلاطفُها؛ تُطْلِقُها من

أعشاشها الحجرية بيَديْ قلبها ـ قلبِ الفريد الأخير ـ إلى سماءِ الكهف المتماوجة، الذهبيةِ من انعكاس ثمانمائة شمسٍ صغيرة تدور حول الأعمدة الثمانمائة الخضراء. لكنَّ النعاسَ القيَّاف في برِّيَّة جسدها تصيَّدها، مراراً. توسلَّتْ إليه أن يطلق سَرَاحها: «أيها النعاسُ المُعْتَصَر من العنقود الأول المتدلِّي من دالية الإله ـ اللون، امْتَلِكْني بنسيانكَ»، فلم ينْسَها النعاسُ القيَّافُ. حاصَرَها، يوماً بعد آخر. قذفَ سُوْرَ أعماقها بمنجنيق الخَدَر حتى كادت أنستوميس تنهار: «أيها النُّعاسُ المُعْتَصرُ من عنقود التعب الأول، المتدلِّي من دالية الإله اللون، حرِّرْني بنسيانك»، قالت، فلم ينْسَها النعاسُ القيَّاف. صَعَد الإعياءُ، ببراثنه القوية، إلى خيالها. تشرَّدت الصُّوَرُ، واختلطت الإشاراتُ. أطلقتْ أنستوميس آخر ضراعاتِها: «لاتَمْتَلكْني، أيها النعاسُ؛ لا تُحرِّرني. أبْقِني في الفراغِ النازف بيني وبينك، يا ابن الوجود اللَّقيط».

تقدَّمت، متمايلةً من الإعياء، إلى العمود الذي تحفظ في جوفه خزانتَها الحاوية شظايا اللوحِ المُهَشِّم. رصفَتْ بعضَ القطع على أرض الكهف. رفعتْ فانوسَها المتضرِّع مثلها، عالياً، بيدها المتعَبة: «كُنْ شريكي أكُنْ ذاكرتَكَ، أيها الجوَّال بلا ذاكرة. أبْقِني يقظى». ارتجفتْ يدُها لا منْ تعبٍ، بل ـ تُقسِمُ أنستوميس بالإله اللون ـ من نبضةٍ سَرَتْ من الحجر إلى راحتها. أجفلتْ أنستوميس: امتلكتْها اليقظةُ الكليةُ، فلم يتمكَّن النعاسُ من استردادها، بعد ذلك.

صارتْ أنستوميس في حالٍ من يقظةٍ نائمةٍ نومَ يقظانَ، ذاهبةً بذاكرتها إلى نسيان أورسين، عائدة بنسيان أورسين إلى ذاكرتها.

كان أكثر روّاد كهف فيفلافيذي من ساكني كهوف الهضبات الشمالية. يأتون بألواحٍ آجُرٍّ ينقلون إليها الصورَ والنقوش بأقلام حديد. هادئون. يتخاطبون همساً بين الأعمدة، التي انتشر بعض المرمِّمين قرب رؤوسها العالية، واقفيْن على سِقَالات مرفوعة بالحبال إلى سقف الكهف. أنستوميس دأبتْ على استعراضهم، ببصرها ـ بصرِ المتأمِّل النَّهِم. يأتون ويذهبون بعد ساعات، إلاَّ تلك الأنثى السوداء اللون، ذات الجديلة الشقراء الملتفَّة حولَ رأسها كطوقٍ ذهبي سميك: تُحمحمُ حَمحماتٍ خفيضة، وهي تنقل الصورَ إلى لوحها الآجُرِّي كأنما تعاتب الصورَ، أو توبِّخها. لم تقترب منها أنستوميس أياماً، حتى وثقت من أن تلك الأنثى اختارت أن تتردَّد على فيفلافيذي كل يوم، من الظهر إلى أول المغيب. دارتْ حول الأعمدة دورات تقلَّصتْ فيها المسافة بينها وبين الأنثى السوداء. أومأت إلى تابعها سِيْنو أن يبقى على مبعدةٍ فابتعد. وقفتْ إلى جوار زائرة فيفلافيذي: «تستنسخين رسومَ كائنات البحر، التي لها حوافرُ الهوداهوس»، قالت، فتطلعت إليها الأنثى السوداء بعينيها الخضراوين، الناطقتين بلسان مياه المضائق المُغلقة: «أستنسخُ الخصومةَ بين البرِّ والبحر. انظري»، قالت، وهي تشير إلى حوافر الكائنات الناتئة في الحجر: «هذا التنافرُ يعذِّب هذه الكائنات».

ربما أراد نحَّاتُها أن يقيمَ صُلحاً، في خياله، بين البرِّ والبحر. أعطى كائناته هذه زعانفَ الإقامة في الماء، وحوافرَ الإقامة فوق التراب»، قالت أنستوميس في نبرةٍ تكتنفُها المُجاملةُ الرقيقة.

«لا زعانف لزوجي، وهو مقيمٌ في الماء»، قالت الأنثى السوداء. لم تفهم أنستوميس. نظرتْ إليها في حنوٍّ ينتظرُ توضيحاً. حمحمت الأنثى السوداء: «زوجي بحَّار. تزوَّجَني وتزوجَ البحرَ معاً. سأستنسخ هذه الرسوم، هنا، وأعيدُ فصْلَ أعضائها. سأنزع زعانفَ زوجي وحوافرَه معاً»، قالتْ محتدمةً، فضحكت أنستوميس: «ستضطرين إلى حمله، أيتها الهوداهوس..».

«اسمي ديْديْسْ»، قالت الأنثى السوداء.

«وأنا..»، قالت أنستوميس، فقاطعتْها ديديس: «الهوداهوس أنستوميس، حاكمة فيفلافيذي».

ارتفع صهيل سِيْنو. التفتت أنستوميس إليه. كان تابعُها نصفَ مذعور. هرولتْ إليه حاكمةُ فيفلافيذي: «ما بكَ؟». فرد سينو: «كادتْ تلك السِّقالةُ تنهار»، مشيراً ببصره إلى قمة عمود التصق به أحدُ المرمِّمين، فوق سِقالة مائلة. الحبلُ الذي يدور حول بكرتين ضخمتين أُفلتَ قليلاً من أيدي بعض العمال. كل خمسة منهم يشدون الحبلَ، عادةً، من جهة، يقابلُهم خمسةٌ آخرون من الجهة الأخرى للبكرتيْن. عشرةٌ أقوياء يؤدون، دائماً، مهمَّة رَفْعِ واحد من الهوداهوس المرمِّمين، على سِقالة عريضةٍ من الخشب الصلب، إلى الأعلى.

أُعيد التوازنُ إلى السِّقالة المائلة. ربتَتْ أنستوميس على كتف سينو، وعادت إلى الأنثى السوداء: «ألك أولاد، أيتها الهوداهوس ديديس؟».

«طفلان ذكران»، ردت ديديس. «هما في رعاية أختي الصغرى التي تسكن معنا في مسكنٍ داخل الكهف الثالث، في هضبة مَانُوْن».

«أراك تترددين على فيفلافيذي، أيتها الهوداهوس ديديس. أحقا تحاولين نزعَ زعانف زوجك وحوافره؟». ضحكتْ.

«إنني أمزح، أيتها الهوداهوس أنستوميس. لا زوجَ لي. لا أطفال»، قالت ديديس، وهي تلمس، في رقَّةٍ، كتفَ حاكمة فيفلافيذي: «لقد تزوجتُ نقوشَ هذا الكهف».

نقلتْ أنستوميس بصرَها من عيني ديديس إلى يد ديديس. لم تنطق. استرسلت الأنثى السوداءُ في مَرحها الغامض: «أتتزوَّجينني، أنتِ أيضاً، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟». صهلتْ صهيلاً خافتاً: «أنا، وأنتِ، وهذا الكهف، والأعمدة، والرسوم، في دورةِ خيالٍ واحد. يمكننا أن نحلم بلا نهاية».

هزتْ أنستوميس جدائلها الكثيرة في فضولٍ عارمٍ صعد من قلبها إلى عينيها: «مَنْ أنتِ أيتها الهوداهوس ديديس؟»، قالت. فأبدتِ الأنثى السوداء استغراباً مَرحاً. هزت ذيلَها الأشقرَ فتماوجت عباءَتُها الصفراء الطويلة فوق ردفيها القويين: «أنا شريكُكِ ديديس».

لم تنطق أنستوميس. صعد سكونٌ ثقيل بينهما غطى على صوت صرير البكرات الخشبية، ولهاث الهوداهوس العمال. استدركتْ ديديس أنها تبالغ قليلاً في محاوراتها: «كلهم يقولون لي إنني أتمادى في مزاجي أحياناً، أيتها الهوداهوس أنستوميس. أعتذرُ. أظنُّ القلقَ هو وسيطُ الخِفَّة إلى خيالِ لساني».

«مِمَّ أنتِ قلِقَةٌ، أيتها الهوداهوس ديديس؟»، ساءلتها أنستوميس، فردتِ الأنثى السوداء: «مني».

«عَدِّيْ قلقَكِ، إذاً، بكلِّ ما تستطيعين. أثْخِميْه»، قالت أنستوميس.

«إلى متى؟»، ساءلتها ديديس، فردَّت حاكمة فيفلافيذي هامسةً: «إلى أن يكتمل».

«ثم ماذا؟»، ساءلتها ديديس، فردت أنستوميس: «ابدأي بتغذية قلقٍ جديد حتى ينفجر من التُّخمة».

دارت ديديس من حول أنستوميس تتأمَّلها بعينين تسكبان الرغبة في قدَح الرغبة. تنفست بقوة كأنما تتشمم اللونَ الذي يتسلق سلالمَ قلبها ـ قلبِ أنستوميس بطبقاتِه الستِّ. صهلت صهيلاً خافتاً: «لم أتزوج. لن أتزوج. لن أقاسم أحداً نصفَ حلمي. لكنني متردِّدةٌ الآن»، قالت مبتسمةً ابتسامة عليها نقوشُ المَرَح النافرةُ. هزت أنستوميس إصبعَها مهدِّدةً تهديداً رقيقاً: «أيتها الهوداهوس ديديس، أنتِ تقتحمينني»، ودارت هي من حول ديديس: «لا ذاكرةَ لك»، تمتمت، فهزت ديديس ذيلَها الذهبيَّ: «لي ذاكرةٌ ملآى بما رأيتُ ومالم أرَ، أيتها الهوداهوس أنستوميس. أستطيع أن أسترجع أرضَ هايداهوداهوس قبل ولادة كهوفها. أنا وأنت، كنا...»، فقاطعتها أنستوميس: «أنت تؤكدين لي أنك بلا ذاكرة. تعالي. سأقودكِ إلى شريكٍ بلا ذاكرة».

«ليكنْ. ما لون حوافر شريكي هذا؟»، تمتمت ديديس ضاحكةً، فلم ترد أنستوميس.

أخرجت حاكمة فيفلافيذي من كيسها الخشن قطعة من اللوحِ الحجرِ المكسور. «اجلسي على هذه الطُّنْفسَة»، قالت. جلستا معاً في فسحة بين الأعمدة. تناولتَ ديديس قطعة الحجر. حاصرتِ الصورةَ النافرةَ بعينين وديعتين. حطتْ حمامة زرقاء على قرن أنستوميس: «أنت تدغدغينني»، تمتمتْ، وطوَّقتِ الحمامة براحتي يديها.

«رسامو هايدراهوداهوس لم يعودوا حريصين على الصور. باتوا يرسلونها مربوطةً على أرْجُل الحمام، وأنا أحملها إلى النحاتين». فتحت ورقةً منسوجة من لِيْفِ عرانيس الذرة. نظرتْ إلى الرَّسم، وهي تقذف الحمامةَ عالياً بإحدى يديها كي تعود إلى قفصها ـ قفص الحمامِ الرُّسل. عادت تحدِّق إلى ديديس «ماذا ترين؟».

«أرى مخلوقاً ذا نِصفٍ يشبهنا. لا. نصفه الأعلى يشبهنا. إنه جزءان مركَّبان، لكنه يبقى نصفاً انشقَّ عن باقي هيكل الهوداهوس».

«أهو نصفٌ، حقاً؟». ساءلتها أنستوميس. فتقرَّت ديديس الصورةَ بأناملها ذات الأظافر الرمادية: «يبدو نصفاً، وليس نصفاً. إنه نصفٌ كاملٌ»، قالت. فوافقتْها أنستوميس بحمحمةٍ رخيمة: «هو نصفٌ كامل. يقودك ـ بلا ذاكرة ـ إلى حلم كامل يخصُّكِ وحدك»، ولمست جبين ديديس برأس قرْنِها، فتنفَّست ديديس هواءً ليس كهواء هايدراهوداهوس.

من الظهر حتى أوائل العصر المصبوغ بغيمٍ خفيفٍ، منحوتٍ على عجلٍ، حوَّم أورسين، كسُرْمانٍ حول خيال ديديس. سرمانٌ كلماتٌ من فم أنستوميس عن تَرَفِ الوحدةِ في حلمٍ بلا

نهايةٍ لأنه حُلُمٌ كامل؛ حلمُ سِرٍّ يعثر الهوادهوس فيه، بتكرارٍ لا نهائي، على ذاته التي لا تشبه نَفْسها في كل مرة يعثر عليها؛ عن أورسين والممرات؛ عن المفقود الذي تستعيده ذاكرةٌ مفقودة: «تذكَّريْ أورسين، لكن لا تذكُريْه»، قالت أنستوميس. لمستْ جبين ديديس، ثانيةً، برأس قرنها، وداعبتْ بأناملها الدرعَ المصنوعَ من زعانف أحصنة البحر، الذي يغطي صدرها: «ما اسمُه؟»، فردَّتْ ديديس: «نسيتُ». تراجعتْ أنستوميس راضيةً.

ديديس ستحمل معها قطعة حجرٍ عليها صورةُ أورسين. ستقودُ أورسين الفاقدَ الذاكرة إلى الممرات الخفية في ذاكرات من تختارهم من أهل الكهوف الشمالية. وستكرر عليهم كلمة أنستوميس ذاتها: «ما اسمه.»، وسيجيبون: «لا نعرف. لقد نسينا». إلاَّ الهوداهوس كِيْكُوْتُو، قارع الطبل في كهف الطواحين؛ الطبلِ المحرِّضِ على بقاء دورةِ الهوداهوس العمال متسارعةً وهم يدورون بأحجار الرحى الضخمة فوق حبوب الدُّخن، والذُّرة، والقمح. سيثرثر في إحدى ساعات القيلولة عن حلم كامل لا يتشارك فيه اثنان. ستتدحرج كلماتُه الحجريةُ على الألسنة الصَّفيحِ في أفواه الثرثارين. سيلتقطُها كيدرومي. سيستنطقُ الكاهنُ قارعَ الطبل، وسيقطع أكسيانوس حنجرتَه بخنجره ذي المقبض النحاس.

قبل ذلك، أي في اللحظة التي تراجعت أنستوميس بقرنها عن جبين ديديس راضيةً، هرول إليها تابعها سينو الأسودُ الجلد، ذو الشَّعر الحليق، إلاَّ بقية كعُرْفِ الديك في منتصف جمجمته: «الأميرة أنيكساميدا هنا، أيتها الهوداهوس أنستوميس».

نهضت أنستوميس معتذرة: «أراك غداً»، قالت. نهضت ديديس بدورها. دارتْ من حول أنستوميس دورةً واحدةً، وأرسلت إليها قبلةً لا تخفى، ثم انصرفتْ.

«أرى الزائرين يكثرون في كهف فيفلافيذي، أيتها الهوداهوس أنستوميس»، قالت الأميرة، وقد انفصلتْ عن الإناث الأربع ـ حارساتها ذوات الأقنعة النصفية، والخناجر الزرقاء المقابض. «الرسومُ، الصور، حنينُ خيالنا إلى ما كُنَّاهُ في وجودنا الأول كنقوشٍ على لوح اللون»، قالت الأميرةُ البلقاء، واسترسلَتْ: «لكِ مملكةٌ، هنا، في كهف فيفلافيذي ستستولي على أرض هايدراهوداهوس وسمائها. أمْ أنها استولتْ عليهما؟». حمحمتْ. وضعت يدها على كتف أنستوميس: «ألا تفكرين في شريك؟ أتحبين؟».

فوجئتْ أنستوميس. حمْحَمَتْ: «لي شريك هنا»، ووضعتْ إصبعها على صدغها. «ولي شريك آخر، هنا»، مشيرةً إلى قلبها.

«اثنان؟!!»، تمتمت الأميرةُ في إعجاب. «أنتِ محظوظة». حرَّكَتْ مروحة يدها أمام صدرها: «أنت عاشقة، حقاً. متى تأتين بهما لزيارتي، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، فردتْ حاكمةُ فيفلافيذي: «ها أنتِ، أيتها الهوداهوس الأميرةُ، في زيارتنا، نحن الثلاثة معاً».

استلطفتِ الأميرةُ توريات أنستوميس. مشتْ قليلاً تستعرض بعضَ الرسوم على جدار الكهف: «منذ متى أنتِ عاشقة، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟».

«منذ أن عرفتُ أنني عاشقة»، ردتْ أنستوميس.

«أتعنين: منذ أن التقيتهما؟. يبدو الأمر ظريفاً أن أوافقَكِ أنهما اثنان. أهما اثنان، حقاً؟»، سألتْها الأميرةُ بلسان الشكِّ الخفيف، فردت أنستوميس: «لم ألتقِ بهما بعد، أيتها الهوداهوس الأميرةُ. لكنني أُحبهما. نعرفُ من نُحبُّ قبل التقائنا به. إنه صورةُ ما ينبغي أن يكون صورةَ حبنا في ذاكرتنا الأولى المهجورة. هو مشرَّدٌ، ونحن نستعيده. ندلُّه ثانيةً على ذاكرةٍ أخرى أعَدْنا ابتكارها. نحبُّه من جديد. نستمر في تشريده مرةً، وضمِّه مرةً: شريدٌ، ومُكْتَنَفٌ، معاً، بين ذاكرةٍ مفقودةٍ تفقُده، وذاكرةٍ مُسْتعادةٍ تستعيده».

«أهكذا تحبين، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، سألتها الأميرةُ في فضولٍ وانجذابٍ، فردتْ أنستوميس: «أليس هكذا تحبين، أنتِ أيضاً، أيتها الهوداهوس الأميرة؟».

«أتسمحين لي أن ألمس قرنَك، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، سألتها الأميرة، فاقتربت منها حاكمة فيفلافيذي. وضعتِ الأميرةُ سبابة يدها اليسرى على نَصْل القرن الأصفر. أغمضتْ عينيها.

تبادلتِ الرسومُ النافرةُ، والغائرةُ، على جدار الكهف، أزاميلَها الخفية. نقشتْ على حجرِ خيالها الدَّفينِ صورةَ أنستوميس وأنيكساميدا.

رعدٌ في الكهف الأعظم

مرَّرَ ثيوني ريشةَ المكحلة على عينيه بنفسه. طلب من زوجته أن تصرفَ المزينتين الأختين سافينوس وروسينا، إذا حضرتا في الصباح الباكر، فصرفتْهما أنيكساميدا: «الأمير منشغل هذا اليوم بمخاطبة البلورة السوداء»، قال.

خلع ثيوني حدواته الذهبية، بالملقط الحديد، مستعيناً بزوجته، وارتدى حدواتٍ من معدن الرصاص. لبس عباءة رمادية، كالبُرنُس، ذات قبعة. أدخل ذراعيه في طوقَيِّ الحزام، الذي يتدلى منه خنجران حديديان عاديان، فاستقرَّا تحت إبطيه: «كيف أبدو، أيتها الهوداهوس الأميرة؟»، سأل زوجته. فهزت الأنثى رأسَها غيرَ موافقةٍ: «ما الذي ستعود به من أهل هايدراهوداهوس؟. فكرتُك مضطربة، أيها الهوداهوس الأمير. فكرتُك لن تقودكَ إلى شيء»، قالت.

تأمَّلها ثيوني، الذي بدا كراعٍ للإوزِّ على ضفتي نهر سيتام المكسوتين برملٍ أصفر. «أن أعودَ بلا شيءٍ، أمرٌ مسلٍّ. تأكَّدي أنْ لا أحد يتبعني. سأخرج من الممرِّ بين الأفران إلى باب كهف المؤنة، معتمراً قبَّعة عباءتي. أُشغلي الطهاةَ، ومروِّبات العجين في المعاجن».

قرعتْ حدواتُه الرصاصُ أرضَ الكهف قَرْعاً مكتوماً، ليِّناً.

منذ أن استنفد ثيوني أحلامَ خُلَصائه، وأعيان إدارة الكهف الأعظم، أمرَ بجلب أناسٍ من العامَّة، كلَّ اثنين ممَّن يتشاركان في حلم واحد، إلى إفطاره يُصغي إليهما يسردان ما التقط النومُ لخياليهما من طبائع الصور، وعناصرِ الوقائع. في الصباحات التسعة عشر الأولى تزلزلَ قلبُ ثيوني: لم يُبحْ أحد بحلمه. وقف الذين أتى بهم رُسُله قرب خِوانه صامتيْن. «الحلم سرٌّ من

أسرار اللون. لن نهيْنَ اللونَ»، قالوا.

تسعة عشرَ صباحاً قُطِعتْ أذيالٌ بين تماثيل الحدائق الحجرية.

حوَّمتْ ذُباباتُ العار البلَّوريةُ فوق الجروح، التي لا تندمل إلاَّ بالموت: انتحر مقطوعو الأذيال بخناجرهم، بعد إطلاق صهيلٍ موحشٍ.

في أحد الكهوف، المشمولةِ بأنفاس سهول الدُّرة، اجتمع محاربون كهولٌ، باتِّفاقٍ مُعْلَنٍ، مع أعيانٍ محظوظين بترف المكاشفات: «فلْنوَسِّط العقلَ في امتحان العقل». اختاروا رسولاً إلى الكاهن كيدرومي: «فليمْهلْنا الأميرُ أياماً نحلُّ فيها المعضلة».

بعث إليهم كيدرومي ـ بعد نشيدٍ عاصفٍ للريح مغسولٍ برائحة الفهود التسعة، المقيَّدِيْن بسلاسل بين أيدي تيتونا وأخيه ريسمو ـ كلمة التفويض: «خذوا وقتَكم. وليكُنْ قصيراً». لكن الريحَ، التي كاشفتِ السهولَ ببعضٍ من تدابيرها، نثرتْ سمسمَ النار على أرغفة المُعْضلة: انقسم الحكماءُ على أنفسهم. أوجبَ البعضُ أن يتمرَّد من يريد، فلا يبوح بحلمه. وارتأى البعضُ أن يبوحوا: «لا نريد أذيالاً أخرى مقطوعة. إنْ يغفرِ اللونُ الإلهُ للريحِ يغفرْ لنا أيضاً». تغاضى المتشدِّدون: «سنرى إلى أين يمضي الأمر».

عادتِ الريحُ إلى أرغفةِ المعضلة تنثر عليها سمسمَ الهلع: كان الحكماءُ كلَّما أحضروا اثنين لإرسالهما إلى الكهف الأعظم، وجدوهما لم يحلما. استعرضوا مئاتٍ فوجدوهم لم يحلموا. حثُّوهم أن يَبْقوا مغمضيْنَ أعينَهم في النهار وفي الليل، عَلَّ شرارةً من شرارات الرحمة تشعل في قشِّ الصور المهجورةِ نارَ اللون فتعود الصورُ مسكونةً.

ارتعد الحكماءُ: هم، أنفسهم، أدركوا أنهم لا يحلمون أيضاً.

نَفَد صبرُ كيدرومي: «مضغ الأميرُ قلبَه مع زهر القرع المخلَّل. لا قلبَ له الآن. سيمضغ قلوبَكم». أرسل إليهم الوعيدَ مدوَّناً بالصور على عود مربوط إلى ساق حمامةٍ قطعتْ سهلَ الدُّخن الشاسع بين كهفه وكهف المحارب الكهل نِيْسيانُو، الذي جمع لوعة خياله في راحتيْ يديه كماءٍ، ومضى إلى كهف فيفلافيذي: «انظري، أيتها الهوداهوس أنستوميس، إلى الماء الذي في راحتيَّ».

لم ترَ أنستوميس ماءً في يديه، لكنها تظاهرتْ بالنظر إلى ماءِ التورية كي تُرضي الكهلَ المحاربَ، المحترفَ الرزين. «ماذا تريْنَ؟»، ساءلها، فردَّتْ: «أرى خيالَكَ، أيها الهوداهوس نيسيانو».

«نعم»، ردَّ نيسيانو: «وحدها، هذه الرسومُ على جدران كهفك، ستظلُّ مسترسلةً في أحلامها. هي وحدها من يملك حلماً، اليوم، في هايدراهوداهوس، أيتها الهوداهوس أنستوميس»، قال بلسانٍ محترق.

ارتعشتْ ريشةُ الجناح الثالث في قلب أنستوميس: «ما الذي يجري، أيها الهوداهوس نيسيانو؟».

«ما من أحد يحلم، والأميرُ منتظرٌ ما يَهَبُه اللونُ من الصور لأعماق عامَّته في نومهم.

ألديكِ، في علوم هذه الجدران الجليلة، ما نجد به مَخْرجاً؟»، سا ءلها نيسيانو منهوباً.

حوَّلتْ أنستوميس بَصَرها عنه إلى مرمِّمي الأعمدة فوق السِّقالات العالية. وضعتْ يدها على قرنها. نطقتْ بعد برهاتٍ من الصمت: «لديَّ شيء مَّا، في علوم الجدار الذي هنا»، وأشارت إلى جبينها: «جدار النقوش الأخرى، أيها الهوداهوس نيسيانو».

التمعتْ عينا نيسيانو، ذي الجلد المائل إلى الصفرة. انفرجتْ أساريرُه: «أريْني نقشَ خيالك، أيتها الهوداهوس أنستوميس».

«لقِّقوا أحلاماً، وخذوها إلى إفطار الأمير كزبدة حليب الجاموس»، قالت حاكمةُ فيفلافيذي.

صهل نيسيانو صهيلَ المَبْهوت: «أيُّ خيالٌ أعمى خيالُنا؟ كيف سَهَونا عن هذا؟».

حمل نيسيانو زبدةَ الخيار السَّهل إلى إفطار الحُكماء، في كهف ما بعد سَهْل الدُّخْن الشاسع. تنفَّسوا الهواءَ برئاتٍ جديدة: «لكل اثنين مُهْلةُ الليل كلِّه كي يلقِّقا حلماً يُبْهِجُ صباحَ الأمير. هيُّوا: أرُوا الأمير بلَّوراتِ اللون المحفوظةَ في خزائن وجود الهوداهوس»، قالوا.

كل صباح دأب ثيوني على الإصغاء إلى اثنين من عامَّة الهوداهوس يحرثان له، بلساني حلمهما الواحد، سطوراً في حقل إفطاره. ابتهج أحياناً من طرائف السَّرد، ومن طرائف المفارقات. اكتأب أحياناً من بؤس الرؤى. تأمل أحياناً في الإشارات المُلْغِزةِ للوقائع. غضب أحياناً من صفاقةِ المعاني. قهقه أحياناً من طيش الوقائع حتى سال خلُّ الدراق الفجِّ من زاويتي فمه على لحيته. أوقف البعضَ عن إكمال السرد احتقاراً لمطالع الحلم.

كل شيء بدا على ما يرام، حتى اليوم الذي دخل فيه كاتسيْاس، وسِنْكو التوأمان اليتيمان، على الأمير. كان شعرُهما الأحمر الطويل يصل إلى ظهريهما، وعلى وجهيهما أصباغ صفراء. انتظر الأمير أن يتكلَّما فبقيا صامتيْن: «ما بكما؟»، قال أكسيانوس. تململ التوأمان. تبادلا نظراتٍ معذَّبةً. «ابدأْ»، قال كاتسياس يحثُّ أخاه، فرد سنكو: «ابدأْ أنت». ثم نطقا، في البرهة ذاتها، بلسانٍ واحد: «نحن لم نعد نحلم، أيها الهوداهوس الأمير. ما جاء به الآخرون إليك، من أحلام، هو تلفيقٌ اضطرُّوا إليه».

ألقى الصمتُ شبكتَهُ على المجلس، فتصيدَ الجالسيْنَ جميعاً. نهض أكسيانوس، أخو الأمير، مضطرباً، فأثار من حوله ذُباباتِ الغضب الخفيَّة: «مَنْ لقَّق الأحلام للعامَّة في هايدراهوداهوس، أيها البائسان؟».

«لا أحد. همُ قادرون على تلفيقها»، ردَّ التوأمان.

نهض كيدرومي مستغرباً: «مَنْ درَّبهم؟»، سأل، فهزَّ التوأمان رأسيْهما نَفْياً: «لا أحد».

احتدمَ الكاهن. انفلت شارباه الطويلان المربوطان بنهايتيهما إلى أذنيه. تدليَّا كأفعييْن من جانبيْ وجهه: «أتعرفان ما ينتظركما؟ ذيلاكُما اللذان سيُقطعان. أنتما تخفيان أمراً»، قال، فنهض الأمير على مَهَلٍ. حَمْحَم بصوتٍ فيه نبرةُ الغامض. تكلَّمَ: «لا. لن يُقطع ذيلُ أحد. إذهبا»، قال للتوأمين. فتراجع التوأمان، وخرجا من كهف الإفطار يقودهما دليلٌ.

دار ثيوني حول الخِوان المديد، الطافح بخضارٍ نديَّةٍ بلَّلها فجرُ هايد اهوداهوس: «أسمعتم

ما قاله هذان؟. العامَّةُ باتوا يستحضرون الإلهَ اللون حين يشاءون. لم يعودوا في حاجة إلى انتظار اللون أن يشرق على منامهم ليبتكر لهم أحلامَهم من سديم اللاَّصور. لقد فتحوا ثغرةً في البوَّابة التي هناك»، وأشار بيده إلى سقف الكهف بلا تعيين.

في المساء، كاشفَ ثيوني زوجته أنيكساميدا برغبته في التجول وحيداً بين كهوف هايدراهوداهوس: «سأخرج، ظُهرَ الغد، متنكراً»، قال. دار من حولها وهي تعيد توزيع المرايا، ذات الأطُر الحجرية، فوق الحاقَات البارزة من جدران كهف الحلى والآنية الذَّهب. «أتظنين، أيتها الهوداهوس الأميرة، أن خُلَصائي، وأعيانَ إدارة الكهف الأعظم، كانوا يلفّقون أحلامَهم التي سردوها عليَّ؟ إنْ كان الأمر كذلك، فالأرجح أنني، وأنتِ، وحدنا، مَنْ سَرَدا نصفَيْ حلمهما، علانيةً، في أرض هايدراهوداهوس».

سقطت مرآةٌ من يدي أنيكساميدا. تناثرتِ الشظايا. حمحمتْ في غضب. اقترب منها ثيوني. طوَّق كتفيها بذراعه في وقوفه إلى جوارها. «انظريْ: عدَّةُ أميراتٍ، وعدَّة أمراء في الشظايا»، قال، وهو يتأمَّل صورتيهما موزَّعةً في المرآة المهشَّمة. حمحمَ حمحمةً فيها نبرةُ امتنانٍ: «أُقسِم بالمرآة، أنني أشمُّ رائحةَ تمرُّدٍ في هايدراهوداهوس».

غمر دويُّ الرعد مداخلَ الكهف الأعظم. دخلتْ حمامةٌ من كُوَّةٍ عالية في السقف. حوَّمتْ قليلاً، ثم خرجت من الكوةِ ذاتها.

آزينون

دارت جدران الكهف الأعظم، كطيورٍ دائخةٍ، في عيني أنيكساميدا. شَقْرةٌ من ملحٍ سلختْ غشاءَ كبدها: «أين الأمير؟»، قالت بصوتٍ متناثرٍ في حنجرتها المسدودة من الهلع.

كيدرومي، كاهن الطواحين، وأكسيانوس، أخو الأمير، حملا إليها جمرةَ النبأ الطاحن: «عثرنا على جثة تيتونا قرب بحيرة سايدين. لا أثرَ للأمير». كان ذلك ظهيرة اليوم الثالث من خروج ثيوني متنكِّراً ليجول بين كهوف هايدراهوداهوس. أوهمتِ الأميرةُ خُلَصاءَ الأمير، وأعيانَ إدارة الكهف الأعظم أنه احتجب من وَعْكةٍ عارضةٍ، ومزاجٍ معتكر. كما أوهم بناتها أن أباهن في خلوةٍ من خلواته المعهودة في مرصده، المنبثق عالياً بحجره الأصفر، فوق كهف الطواحين، يستعرض، من هناك، سطورَ السهول مدوَّنةً بأنفاس اللون على مرايا الأفق ومرايا السماء. لكن خبرَ مقتل تيتونا مذبوحاً صعقَ خيالَ أنيكساميدا، وزلزلَ عظامها. «أرسِلا حَرَساً إلى جميع الجهات. احْرُثَا بحوافر جنودنا ترابَ هايدراهوداهوس، وغيومَ هايدراهوداهوس. اعثرا عليه»، قالت منتحبةً بصوت خافت.

«الأمرُ السديد، أيتها الهوداهوس الأميرة، أن نتكتَّم على اختفاء الأمير حتى يكتمل لعقولنا ما ينبغي أن نفعل. أنا وأكسيانو سنقلب الأرضَ عاليَها سافلها، وحدنا»، قال كيدرومي. صهل حين عَبَرتْ قلبَه سحابة من صور الحِيْلة. اهتزَّ شارباه: «سأجد مَحْرَجاً مؤقتاً، أيتها الهوداهوس الأميرة. مسَّني وحيُ اللون». تلفَّت باحثاً بعينيه عمَّن يُنجده: «من سيأتيني

بالفلكيِّ ميدراس. ».

في رُكنٍ من الحدائق الحجرية، قرب تمثال الثور ذي الرأس السمكة، التقى كيدرومي، وأكسيانو، بالفلكيِّ الشاعر ميدراس، الذي اصطحبه للقائهما اثنان من ذوي الأقنعة النصفية الصفراء ـ حُجَّابِ كهف الحمَّامات. أوصلاهُ وانسَحبا. تخاطبَ الثلاثةُ بالمُرادفات المبنيَّةِ على هيئة الفَلَك: الدَّورة، والمراكز، والتتابع. تبادلوا تقديراتهم لأحوال الهواءِ وطبائعه الستَّة عشر، ثم سكتوا. انتظر ميدراس سقوطَ بذرة المعنى، الذي أَخْضرَ من أجْله، في تراب علمه. حمحم كيدرومي: « أخبرتني مرة أنك رأيتَ شاعراً يشبه الأمير، أيها الهوداهَوس ميدراس. هلاَّ جلبتَهُ إلينا؟ نلتقيكَ، هنا، عَصْراً ».

تأمَّل ميدراس البذرةَ اللامرئية في كلمات الكاهنِ المرتَّبةِ على نَسَقٍ كالغمام: « آزينون؟! »، تمتم. « تريدان الشاعر آزينون؟. لا أَعِدُكما أن آتي به عصراً. أرجِّحُ المغيبَ. في المغيب أستطيع العثور عليه داخلَ حانةٍ من حانات كهوف الرمال ».

في الركن ذاته من الحدائق الحجرية، تحت ضياء تسعة مشاعل في أيدي ذوي الأقنعة النصفية الصفراء، تلاقى كيدرومي، وأكسيانوس، وميدراس، وآزينون. بوغت الكاهنُ وأخو الأمير بالشَّبَه المُحْكم بين ثيوني والشاعر. خلع أكسيانوس عباءته على عجل، وجَعَلها خِماراً على رأس آزينون، فغطى ملامحَهُ بالظلال. « أنا ممتنٌّ لك، أيها الهوداهوس ميدراس. نراكَ غداً »، قال الكاهن، فأدركَ الفلكيُّ الإشارةَ. تمنَّى لهم ليلاً مُعْتصراً من عناقيد الإله اللون، وعافية اللون، ثم انصرف.

عبر الممرِّ اللولبي، المؤدي ـ من جهات الكهف الأعظم الخلفية ـ إلى بهو الأفران، دخل الثلاثة. لم يتعرَّض الحرسُ المحيطون بالمَرصَديْن العاليين، على جانبي المدخل، للغَريب، إذ رأوه في صحبة الكاهن وأخي الأمير، اللذين قاداه، وسط الحركة الدؤوبة للعاملين والعاملات، المختصين بشؤون الأطعمة، إلى كهف المؤونة ذي العَبَق اللانهائيِّ ـ عبقِ التوابل، والأفاويه، والخلِّ المُدَرَّب على مدح الذَّوق، والطيور المُدخَّنة، والأجبان، والفاكهةَ المجفَّفة، والأنفاسَ المحمومة للفرَّانين يستدرجون الإناثَ العجَّانات إلى دهاليز النبيذ الجانبية، حيثُ الفُرُوجُ تُعيْدُ الصوابَ إلى الخُصى، وتعيد الخُصى الصوابَ إلى الفروج.

في تجويف معتمٍ قليلاً، خلف جدارٍ من عرانيس الذُّرة، جلس أكيسانوس وآزينون صامتيْن. غادر كيدرومي المكان. غاب وقتاً وعاد تتبعه أنيكساميدا وقد وضعت خماراً على رأسها. نهض الجالسان. اقتربت الأميرة من آزينون. مدتْ يَدها وأزاحتْ خماره عن رأسه. ارتعد قلبُها مندهشاً. حمحمتْ بقوةٍ: « أيةُ صورةٍ جمعتْكَ بزرةً بزرةً من خزائن اللون لتبتكركَ شكلاً في مرآة ثيوني إذا نظر إلى نَفْسه؟ قلْ لي، أيها الهوداهوس الغريب، إنك لستَ الأمير »، قالت أنيكساميدا بصوتِ خيالها المرتعش من نَفَسِ الذهول. ضحك آزينون: « أسمعُ، في هذا الكهف، منْ يغنِّي أغاني الموج، وأنا لا أحب الموجَ. كيف يكون أميراً من لا يحبُّ الموجَ، أيتها الهوداهوس... ». ضرب أكسيانوس بحافره حافرَ آزينون: « إنها الأميرة ».

التصق لسانُ آزينون بحلقه. تفتَّتَ خيالُه.

«ضَعْ خمارَك على رأسك. اجْعَلْهُ منسدلاً على وجهكَ قَدْرَ ما تستطيع»، قالت أنيكساميدا للشاعر. غطتْ رأسَها بخمارها: «فلْنذهبْ إلى كهف المزيِّنتين سافينوس وروسينا». تقدمت خطواتٍ ثم توقَّفتْ. استدارت إلى آزينون: «لا تتكلم إلى أحد. إبقَ صامتاً». مشت. توقَّفت: «كُنْ عابساً قليلاً».

جاورها كيدرومي: «ماذا سنفعل بصوته؟»، ساءلها، فردَّتْ: «لِيَقُلْ لكلِّ من يسأله عن صوته إنه ضجرَ من صوته، وها هو يتدرَّب على صوتٍ جديد. بلِّغْهُ ذلك، أيها الهوداهوس الكاهن».

جَمْعٌ من زوجاتِ أعيان الكهف الأعظم كُنَّ ينتظرن دورهنَّ للوصول إلى مصاطب التزيين ذوات الأدراج الواسعة الخمسة. تصعد الواحدةُ سدةَ المصطبة وتجلس لتتمكن المزيِّنةُ الواقفةُ، من إعادة ظلال الوجود المرقَّهةِ إلى الوجه. ستُّ مصاطب كانت هناك. اثنتان لأداء المزيِّنتيْن الأختَين، والأربع الأخرى للمُسَاعِدات. نهضت إناث الهوداهوس حين دخلت الأميرةُ. أومأتْ أنيكساميدا إلى روسينا، فأسرعتِ الأنثى الشديدة البياض إليها. تماوج درعُ الخزر على صدرها من وَثْبَةِ الثديين.

«أهنالك رُكْنٌ مستورٌ، أيتها الهوداهوس روسينا، يخفينا عن الأعين؟»، قالت الأميرة.

«كهفُ الأصباغ، تحت هذا الكهف»، ردت روسينا. «نستطيع النزول إليه، عبر الدرجات التسع، في أوَّل المنعطف المؤدي إلى بهو كهف التزيين، أيتها الهوداهوس الأميرة».

آنيةٌ زجاجٌ. أكياس صغيرة وكبيرة. صحون فخَّارٌ وآجرٌّ، ملأى بالأصباغ، في كوى محفورة في جدران الكهف. أوراق أزهار جافة. عيدانٌ. أجْرامٌ حجرٌ: كلُّها في سلال. أجرانٌ صغيرة. زيوتٌ في قوارير. روائحُ تُلْمَس ولاتُشمُّ. ألوانٌ تُشَمُّ ولا تُلْمَس: ذلك كان حال كهف الأصباغ، الذي نزل إليه، عبر الأدراج التسعة، أنيكساميدا، وكيدرومي، وروسينا، وآزينون، وأكسيانوس. كهف ذو زوايا، وتجاويفَ قوسيَّة، وأربعة أعمدة ثخينةِ الاستدارة، وكوَّتين عميقتين تنيرانه إنارةً خافتة. أشعلت روسينا، بشرارة القدَّاح الحجر، فتيلَ السراج النحاسيِّ الكبير. تشاجرتِ الظلالُ قليلاً، ثم تصالحتْ.

أزاحت أنيكساميدا، بيدها، الخمار عن رأس آزينون. تلعثمت روسينا من هبوب صورة ثيوني على عقلها. تمالكتْ نَفْسَها: «أحمدُ اللونَ على عافيتِكَ، أيها الهوداهوس الأمير». اتسعت عينا آزينون من صوتها. ضاقتِ الحقائقُ في خياله. لم يتكلَّم. تذكَّر أن يكون عابساً، فعبسَ.

«طالتْ لحيته قليلاً، أيتها الهوداهوس روسينا. أعيديْها إلى حدودها، وأكْثِري من ظلال الأصباغ على صدغيه»، قالت أنيكساميدا.

هرعت روسينا إلى آلاتها وقواريرها. هزَّت ذيلَها بقوة تطردُ الأسئلةَ المُشَاكسة التي علقت بجلدها الأبيض كبراغيث الكلب: لماذا حضر الأميرُ إلى كهف الزينة بنفسه؟ ثيابه ليست من

معلوم القماش في الكهف الأعظم. خنجراه عاديان. لا صليل لحدواته. مَرَحٌ مكتومٌ يترقرق في عينيه بالرغم من عبوسه. رفرفَ ثدياها تحت درع الخزر على صدرها حين استدارتْ عائدةً بما تحتاجه لتبرُّجِ الأمير.

خرج وجه آزينون من بين يدي روسينا مَسْكوباً في قالبٍ من وجه ثيوني.

في رُكن آخر من أرجاء الكهف الأعظم استعاد آزينون بقايا الظلال التي تتكوَّن منها تفاصيل ثيوني: حدواته، وخنجريه، وعباءته الصفراء، والسيورَ الذهبَ حول رأسه، والحركة المُتْقَنَة لأنامل يده اليسرى، حين يموِّجُها كفراشة إذا أراد المزيدَ من أيِّ شيء. ولَّما حضر أوَّلَ لقاءٍ مع بناته، سبقتْه حمحمةُ التأكيد القويِ على أنه يتدرَّب على صوتٍ آخر ـ صوتِ اللامكترث، الثرثار قليلاً، المتذبذب بين الرغبة ونقيضها. داعب رؤوسهنَّ ـ حسبما أملتْ عليه الأميرةُ ـ فأسقطَ تيجانَ الريش عنها. سمع أسماءهنَّ من فم أتيكساميدا وهي تتعمد أن تبعدهنَّ عنه، واحدةً واحدةً: «احذرْنَ سُعاله»، قالت. لكنَّهنَّ استعرضْنَ في عينيه، بأعينهنَّ المتربِّصةِ، طرائدَ الرغبة التي تخلو منها العراءاتُ الخفية في أعين الآباء. تجرَّأْنَ فمازَحْنَه أكثر مما فعلْنَ من قبل. شددْنَ ذيله، وتلمَّسْنَ خنجريه.

«الفوضى هي النظامُ الأصل». تلك كانت كلمات آزينون ـ ثيوني في مجلس الخُلصاء، وأعيانِ إدارة الكهف الأعظم. «الفوضى خلاصٌ»، قال من سُدَّة المصطبة التي يجلس عليها، في صدرِ الإيوان. أكسيانوس تعمد الجلوس إلى جواره. كلَّما تحدَّث مخلوقٌ من الهوداهوس إلى آزينون ذكَرَ أكسيانوس اسمَ المتحدِّث، ومرتبتَه، بصوت عالٍ يُحيِّيْه، أو يسأله شيئاً مَّا، كي يتمكَّن آزينون من اختزان الاسم في ماءِ خياله وماءِ عينيه ـ ماءِ الصور. «كُلَّيٌّ، عميقٌ، هو الفوضى. تنظيم الفوضى مساسٌ بقدسيَّة الأصل، وإهانة لخصائص الموجودات».

لم يكن يهمُّ ما يُلقيه آزينون من كلماتٍ مُمَرَّغةٍ في عبثها الظاهر. عيناه كانت تهمَّان الجالسيْنَ. عينان شبكتان تتصيدان الوجوهَ كالشِّباك المموَّهة يتصيد بها أهلُ الحقول طيورَ السُّمانى. كيف عاد الأمير بتلكما العينين، بعد احتجابه أياماً قليلة؟ هكذا، في الأرجح، تساءل خُلصاؤه، وأعيانُ إدارته، وهم يتخبَّطون في شِباكهما كالفراشات، كأنما يقتحم آزينون أعماقهم.

«المركزُ خطأٌ في التقدير. محيط الفراغ هو مرْكَزُ نَفْسِه. كلُّ محيطٍ كتلةٌ متنافرةُ الأبعاد. لا توازنَ إلاَّ في الفوضى..»، كلماتٌ لم تهمَّ المحيطين بآزينون ـ ثيوني. وهو، نَفْسُه، كان يُلقيها كأنه سمعها من أحدٍ مَّا، مستدرجاً بها جُلساءه إلى حضورٍ فارغٍ. أمَّا إذا نظر إلى أنستوميس فلا يستعرضُ معادنَ النظام، أو معادنَ الفوضى، في خيال لسانه. يدور بأنستوميس دورةَ الظلِّ الحالمِ على الشَّكل الحالم. يستنشقُها من غصون البقاءِ المسحور: «كلُّ عَظْمٍ، في جسدي، قلبٌ. كل عضلة رئةٌ. كلُّ عَصَبٍ نَفَسٌ».

مُذْ ناداها أكسيانوس بلقبها ـ لقبِ حاكمة فيفلافيذي، نقَشَتِ الرسومُ الأزليةُ أسماءَ المعاني الحائرةِ على مَعْدنِ الغَمام فيه. «كم مرة زرتُ فيفلافيذي؟»، سألها، فردتْ: «أنت لا تزور

فيفلافيذي، أيها الهوداهوس الأمير».

ضرب آزينون ـ ثيوني بيده على صدره: «سآتي بكهف فيفلافيذي إلى الكهف الأعظم، وسأحمل الكهفَ الأعظمَ إلى فيفلافيذي».

امتعض أكسيانوس. حمحمَ الكاهن كيدرومي. رفرفتْ أنيكساميدا بمروحة يدها أمام وجهها، عائدة بخيالها إلى المساء الذي كاشَفَها الأميرُ برغبته في الخروج إلى ساحات هايدراهوداهوس وأسواقها، متنكِّراً. لم تحتمل الفكرةَ المعذِّبة. أرسلت الطاهي البديْن كيرنو المخصيَّ إلى كيدرومي: «سيخرج الأميرُ وحيداً، غداً. فلْيتْبعْهُ من تثق به من أقوياء حَرَسِ الطواحين، ولا تدعِ الأميرَ يشعر بذلك».

ترصَّد تيتونا خروجَ الأمير من باب كهف المؤنة، مُحْتَجِباً خلف عربات الفاكهة، القادمة من حقول نهر تُومان الأزرق، وتتَّبعه بحوافر مكسوةٍ بنعالٍ من جلد الجاموس السميك، كعادة من لا يملكون حدواتٍ. تتبَّعه بخطىً خرساء ـ خُطى الحَذَر من طيش الصخب، وطيش السكون.

خنجر ديْديْسْ

تهامس ستةٌ من الهوداهوس غطوا رؤوسهم بقبعات عباءاتهم الشبيهة بالبَرَانس: «ها هو تيتونا يتبع أحداً ما». خرجوا بهدوءٍ من خلف الأعمدة الكبيرة، المحيطة بالممرِّ إلى الأسواق.

اثنان من الستة الهوداهوس كانا يجوبان المعابرَ الخلفية إلى حدائق الحجر، حيث دأب تيتونا أن يسلكَ أحدها باتجاه الكهف الأعظم، فيما انتظر أربعةٌ آخرون على مشارف حقول الذُّرة العالية. لم يظهر تيتونا. نثرتْ شمسُ الصباح ريشَها على وسائد السماء ـ تلك الغيوم المنفوشَة، كشَعْرٍ منفوشٍ، في أول يقظتها. استقرَّ الريشُ على الوسائد، ولَم يظهر تيتونا. عادَ الاثنان باتجاه حقول الذُّرة، عبر طرق العربات التي يجرها أصحابُها الهوداهوس بأنفسهم: هناك رأيا العملاق محدِّباً ظهرَه قليلاً، مغطى الرأس والكتفين بخمارٍ من وَدَعِ النهر والخرز. كان يخفِّف مَشْيَه أحياناً، ويُسرع أحياناً. يتوقَّف متظاهراً بمكالمة بعض رعاة الإوز، أو يلتقط من الحجارة الصفراء، المخروطية، أصدافاً بخنجره، يتزيَّن بها صغارُ الهوداهوس.

عرفاه من شاربيه المفرطين في طولهما؛ من منكبيه العريضين. أطلقا صهيلاً خافتاً، متواصلاً ـ صهيلَ التنبيه، فتحرَّك الأربعةُ الآخرون. مشوا متفرِّقين حتى المداخل المتشعبة، المحفوفة بالأعمدة، في مطلع ممرات أسواق هايدراهوداهوس. اجتمعوا خلف الأعمدة: «تيتونا يتبع مخلوقاً مَّا»، قالوا في همس.

دوراتٌ كثيرةٌ قادتِ الستة من الساحات إلى الساحات. باتوا على يقينٍ أكبر من أن تيتونا يترصَّد مخلوقاً ذا مرتبةٍ تختلف عن مراتب من يختارهم من أهل الكهوف الشمالية. هو يأخذ من يريد إلى تحقيقاتِ كيدرومي علانيةً. يأخذهم ويختفون. فلماذا، يقتفي أثرَ مخلوقٍ يقدر أن يختطفه مع معاونيه؟ ولماذا هو وحده؟ تيتونا، في مطاردته المتأنية، غير المُعْلَنة، لذلك المخلوق، لم يتصرَّف كتيتونا المعهود، الذي باتوا يتعقبونه في حركته بين الكهف الأعظم وكهف الطواحين

الشاسع الأرجاء. منذ ازداد اختفاء من يستدعيهم العملاقُ، من أهل الكهوف الشمالية، اتَّخذ بعضُ القلقيْنَ قراراً باقتفائه. مضى وقتٌ طويل قبل انكشاف الطَّلَّسم الدمويِّ: الذين يختفون، في دخولهم كهف الطواحين، يخرجون من تجويف في الصخور الخلفية، الوعرة الوحشية، مقتوليْنَ.

صَهَل فريقٌ غاضبٌ من الهوداهوس صهيلَ المُهَانين: «سنذبح تيتونا».

خمسةٌ من المُدرَّبين على حَمْل الأجران الحجرية أربعة فراسخ، وواحد رقيقُ الهيئة، توكَّلوا بتدبير مراقبة تيتونا. شحذوا خناجرَهم على حجر الرمل، وشحذوا شفراتِ قلوبهم على حجر الثأر.

في ساحة نصف دائرية من السوق، ازدحمتْ بأقفاص الطيور، وبضجيج مطارق الحدَّادين، كتبَ الهواءُ سطرَ ندائه المتناثرَ على ألسنة الستةِ: «من سيضربه أوَّلاً؟».

«أنا»، قال الهوداهوس الرقيقُ الهيئة، من تحت قبعة عباءته، بصوتٍ منقوشٍ زخارفَ على الفراغ المطحون. لم ينتظر. استعجل في مشيه حتى جاوزَ تيتونا، ثم استدار بغتةً بخنجرٍ مسلولٍ مرَّتْ شفرتُه على حنجرة العملاق المنشغل العينين بمراقبة مَنْ يقتفي أثرَه. لم يضربه الآخرون الخمسة: كان الشَّقُّ، الذي تركهُ الخنجرُ الأول في حنجرة تيتونا، كافياً لأن يعرفوا، بلمْح البصر، أن الهواءَ قد تخلَّى، إلى الأبد، عن رئتيه. اختلطوا بأهل السوق، الذين انتبهوا إلى حركة العملاق دائراً حول نفسه، ممسكاً حَلْقَه بيديه، وهو يُطْلِقُ شخيراً كَقَيْعِ الخنزير. اختلط الهَلَعُ بالفضول. تدحرجت أقفاصُ الطيور، وانقلبت منصَّاتُ الباعة.

لم يهمَدْ جسدُ تيتونا إلاَّ بعدما قوَّض الساحة نصفَ الدائرية، وأسقطَ على نَفْسِه الأقواسَ الحجرية في بهو الموت، الذي تنحتُه الغيبوبةُ في الكتلة الهائلة، الصلبة للحقائق، بتفاصيل مذهلةٍ.

تقدَّم الستةُ إلى الغريب الذي كان يتبعه العملاق. هو نَفْسُه لم ينتبه إلى ما حدث، لكنه التفت إلى صخبِ الجَمْع المتحلِّق حول شيء لا يراه. أحاط الستةُ به. أمسك اثنان منهم بذراعيه وصَهَلا: «أسْرِعْ. أنت في خطر»، فاندفعَ معهم مشلولَ الخيال.

سلك السبعةُ الممراتِ الرملية خارج محيط الأسواق. تسلقوا التلَّ الأصفرَ. ثم انحدروا إلى ضفة نهر سيتام. من هناك انعطفوا صوبَ دَغْل التوت الأحمر. لبسوا الظلالَ، ولبستْهم الظلالُ.

تنفَّسوا بعمْقٍ، في الفراغ المُنْعِش بين الشجر. أزاح المخلوقُ الرقيقُ الهيئة الأقلُّ عضلاً قبَّعتَه عن رأسه، فانتشر شعاعُ الشعرِ الأشقر المجدول حول الرأس كطوق ـ شعرِ ديديس. حامت حول الغريب: «أتعرف مخلوقاً يُدعى تيتونا؟»، قالت. تسلل هواءٌ بارد إلى قلبِ الغريب. بقي صامتاً.

«تيتونا. تابع الكاهن كيدرومي، أيها الهوداهوس الغريب. ألم تسمع به؟»، سألته ديديس. بقي الغريب صامتاً.

«كان يتبعك. أتعرف أنه كان يتبعك؟»، سألته، فردَّ الغريبُ بصوتٍ فيه نبرةُ الريبة الباردة: «لا».

«لا تعرف، إذاً، لماذا كان يتبعك تيتونا؟»، سألته، فهزَّ رأسه: «لا. لا أعرف».

جلست ديديس على الأرض المكسوة بعشبٍ خجولٍ تحت شجر التوت الأحمر. جلس الآخرون. ظلَّ الغريبُ واقفاً. حمحمتِ الأنثى ذات العينين الخضراوين: «اجلسْ، أو أهربْ»، قالت بلسان المزاح. ضحك الآخرون.

«من يتبعْه تيتونا يختَفِ، أيها الهوداهوس الغريبُ. تيتونا ذراعُ الهاوية»، قال أحد الجالسين. صهلَ الآخرون صهيلاً خافتاً.

«من أنت، أيها الهوداهوس الغريب؟»، سأله أحد الجالسين، فردَّ الغريب مستعرضاً بعينيه الأجسادَ القوية للمدرَّبيْنَ على حمل الأجران الحجرية: «أنا راعي الإوز من كهوف التلال البيضاء، خلف سهول القمح الشرقية»، قال. ضحكت ديديس: «كان تيتونا سيسرق منك إوزَّك، في الأرجح». ضحك الجالسون.

«أأنت ممن يتستَّرون على حلمٍ كامل؟»، سألته ديديس.

ارتبك لسانُ عقل الغريب: «حلم كامل.!».

«لا يهمُّ، أيها الهوداهوس الغريب. لم تقلْ اسمك، أيضاً. لا يهمُّ. من يتتبعه تيتونا ليس إلاّ حاملَ سرٍّ يخصُّه هو. سرُّك لك. أين تقيم؟»، سألته ديديس.

«حضرتُ اليوم. سأبحث عن خانٍ»، رد الغريب.

«لماذا الخان؟. فليأخذْك الهوداهوس كِيْنُوس إلى مسكنه. يحبُ المرحَ، والصخبَ، والأعراس. ستكون محظوظاً في صحبته»، قال أحد الجالسين، فردَّ جالسٌ آخر: «أنا كينوس. هؤلاء لا يتحدثون إلاَّ عن طباع المَرَح التي لي، وطباع الولائم، التي لي. ماذا عن خنجريَّ؟. أشقُّ إحدى عشرةَ حنجرةً، بقفزة واحدةٍ، في عبوري أمام صفٍّ من المحاربين. ثم أُعيد خنجريَّ إلى غمديْهما قبل أن يحسوا أن حناجرهم انشقتْ، أيها الهوداهوس الغريب. أعطيتُ شرفَ ذبْح تيتونا للهوداهوس ديديس، اليوم». قبَّلت ديديس، الجالسة إلى جواره، مقبضَ خنجره الأيسر.

أمضى الغريبُ ثمانية أيام يجوب أعماقَ الكهوف السفلية، تحت التلال الكبرى شمالَ شرق هايدراهوداهوس، في رفقة صاحبه القويِّ، الفضيِّ اللون، كينوس. كيسُه الصغير كان مليئاً بحجارة الزمرد الصغير ينفِقُها بسخاءٍ في الأسواق، وفي مجالس اللهو، وحلبات المصارعة. أمَّا إذا صاحبتهما ديديس فإنما تقودهما، بنفسها، إلى المُدرَّجِ المنتصب على ضفة البحيرة ـ مدرَّج غناءِ ساحرات سايدين، اللواتي يقدِّمن، في ضياء الفوانيس الكبيرة، والمشاعل، نشيداً حزيناً للمياه، مُلْغِزاً، رَطْباً من هبوب الضباب، وماجناً أيضاً: «اسمُك المنسيُّ، الفاتنُ، يؤرِّقني. زبدُك يورِّقني، أيتها المياه. الرعد الذي لكِ رعدُ الذَّكرِ الذي يستبيحُني. الرعدُ الذي لكِ رعدُ الأنثى التي تستبيحني». تسمع ديديس الأناشيدَ فتعصر مقبَضيْ خنجريها.

لكن ديديس أوصت كينوس أن يصحب الغريبَ إلى كهف الرُّواة، ذلك اليوم الذي أزمعتْ فيه، للمرة الأولى، أن تدعو أنستوميس إلى ترفيه مُغْرٍ لا تعرفه حاكمةُ فيفلافيذي في عالمها القريب من الكهف الأعظم. الرواةُ يروون ـ وقد ارتدى كلٌّ واحدٍ صِداراً من الجلد، أو درعاً من الزَّرد النحاسِ ـ أقاصيصَ مُلْغزةً، وحكايات أسْفارٍ ورحَّاليْنَ: لوعةً، وغرامٌ، وهلعٌ، وغدْرٌ، وخياناتٌ، وأساطيرَ، وأقدارٌ يتعثر بعضُها ببعض. تسع منصَّاتٍ في الكهف، متباعدة، يصعد إليها الرواة، ولكلِّ منصَّةٍ جمهورٌ بحسب ما يستهويه.

«أيتها الهوداهوس أنستوميس، هلاَّ رافقتِني إلى ترفيهٍ يخلو منه خيالُ الكهوف المحيطة بتخوم الكهف الأعظم؟»، ذلك ما قالته ديديس لحاكمة فيفلافيذي، قبل الظهر بقليل.

«إلى أين؟»، سألتها أنستوميس، فردَّت ديديس: «إلى كهف الرواة، في أعماق التلال الكبرى».

تردَّدت أنستوميس: «سأسأل التابعَ سينو إنْ كان قد زار تلك الكهوف من قبل»، قالت، وبحثت بعينيها عن تابعها المتجوِّل بين الأعمدة. لمستْ ديديس كتفها: «لن تحتاجي إلى مشورة سينو. سأريك نقوشاً لايعرفها إلاَّ الهواء ـ أيتها الهوداهوس أنستوميس. سأريك نقوشاً تعيدين ترتيبها بحسب كل حالٍ من أحوال خيالك».

عَصْراً اصطحبتْ ديديس حاكمة فيفلافيذي، وحدها، إلى كهف الرواة، بعد مسيرة فرسخين ونصف الفرسخ، عبر أسواقٍ صغيرة، وحقول تكثر فيها أسرابُ الإوزِّ، وصفوف أعمدةٍ تسند سقوفاً متقطِّعة يتفيَّأ تحتها الجنود الجوَّالة، وباعةُ أَلبان الجاموس. كان مدخل الكهف منحوتاً على شكل قناعٍ نصفيٍّ. روائح خشب الرَّنْد، وشواء اللحم، ممتزجةً بالصهيل الخافت، هي التي غمرتهما إذْ دخلتا إلى الجوف المضاء بمصابيح كبيرة، وثريات ملآى بالشموع تتدلى من السقوف، فوق الأبْهاء المنتشرة بين الأعمدة. «تعالي من هنا، أيتها الهوداهوس أنستوميس. أنا مفتونةٌ بالقصص المُلْغِزة. عسى تستهويك، أيضاً، قصصٌ كهذه»، قالت ديديس. لم تنتظر جوابَ حاكمة فيفلافيذي. مشت أمامها كدليلٍ إلى البهو الثالث، حيث وقف راويةٌ فوق منصَّة حجرية أحاط بها حشدٌ من الجالسين. الرَّاويةُ يحكي، ويدور حول نفسه كي يستعرض الوجوهَ كلَّها، والجالسون يحمحمون، أو يصهلون.

في هدوء تقدَّمت الأُنثيان. «فلنجلسْ هنا»، قالت ديديس مشيرةً إلى عمود فُرِشَتْ على جنبيه زرابيُّتان. ركعت على ركبتَيْ قائمتيها الأماميتين تهمُّ بالجلوس، لكنها استقامتَ إذْ أحسَّت أن أنستوميس تتراجع. «مابكِ.»، تمتمت. «ما الذي أجْفَلَكِ؟». نظرت إلى وجه أنستوميس المنكمش من الدَّهَش والذهول معاً. حمحمتْ حمحمة ارتباكٍ: «أيتها الهوداهوس أنسـ..». دارت أنستوميس. هرولتْ صوب باب الكهف كأنَّما عضَّها الهواءُ بأسنانٍ من نار. لحقت بها ديديس. صارتا في العراء المسكون بصور المغيب غير المكتملة بعدُ. «بحقِّ اللون، أيتها الهوداهوس أنستوميس، ما الذي..». لم تلتفت أنستوميس. حمحَمتْ بصوتٍ مثلوم: «نسيتُ شيئاً، أيتها الهوداهوس ديديس. الأميرةُ...»، قالت باحثةً عن عُذْرٍ ضائعٍ قد ينقذُهُ التلفُّظُ باسم الأميرة. ركضت بقلبٍ طائرٍ.

دارت أنستوميس، تلك الليلة، حول كل عمود من الأعمدة الثمانمائة في كهف فيفلافيذي. لطالما أحسَّت أن الأمير ثيوني قد قشَّر شخصَه واكتسى شخصاً آخر. لم تكن الأشعارُ من طباع لسانه، لكنْ ها هو ينثرُها مع حركة عينيه وحركة جسده. أنيكساميدا هي التي تعيد المحاوراتِ بينه وبين أعيان الكهف الأعظم إلى سياقها، لأن ثيوني يجعلها ظلالاً متفرِّعةً في نسيجٍ من التوريات. أكسيانوس، يجلس أبداً، على نحوٍ غير معهود، إلى جوار أخيه. يهامسُه بشكلٍ متكرِّر. عينا الأمير تتشردان في عبور الخادمات حول الخِوان. يصهل صهيلَ الرغبة بلا حرج. وهو بات ملحاحاً في الطلب إليها أن تحضر مآدبَ العشاء. يتشمَّمُها قبل أن يجلس، متجاهلاً عيني أنيكساميدا.

تعرف أنستوميس بَرَمَ الأمير الذي بلا حدود. لربما كان سلوكه هذا من دُعابات خياله الجامحة لاستدراج الآخرين إلى لعبةِ البلبلة. يجب إدارةُ الاضطراب، بلا صخبٍ، على مَنْ يكلِّمهم. لطالما كرَّر كلمتَهُ الأثيرة: «الضجرُ شوقٌ» باختزالٍ يموِّه المعنى. لكنه، في مخاطباته المشمولة بسؤاله

الموجَّه إلى أعيان الكهف الأعظم، عن أحوال هايدراهوداس، يتوخَّى الوضوحَ الصارم، المتَّزِنَ، والمُقْتَصَد. أنستوميس لم تشكَّ، قط، في أن الذي تراه هو الأمير، بالرغم من السَّهو المُحيِّر الذي يستغْرِقه، بين حين وآخر، فيُسارع إلى تبديده بتقليد نَفْسِه، التي غَفَل عنها قليلاً. كان، بحقٍّ، منقسِمَ الخيالِ بين الضجر، وبين الشوق: ذلك ما أكدتْه أنستوميس لعقلها. بَيْد أنها تشقَّقتْ كقشرة الكستناء على صاجٍ فوق النار، حين لمحت، في دخولها كهفَ الرواة، مخلوقاً يشبه الأميرَ على نحوٍ مفرطٍ في الوضوح، قرب مصباح ضخم، هادىء الفتيلة، لا يموِّه الملامحَ بالظلال. وكان ذلك الشبيهُ يفتِّل خصلةً من شعره، فوق أذنه، بأصابع يده اليسرى، كعادة الأمير حين يُصغي.

أربعة عشاءاتٍ دأبتْ أنستوميس، في كهف المآدب، أن تروِّضَ يقينَها المذعورَ بإعادة المطابقة بين صورة الأمير في خيالها، وصورة الأمير أمام عينيها. عذَّبَها تشتُّتُها، الذي أحدثتْه رؤيتُها للمخلوق الشبيه في كهف الرواة. عذَّبَها أَلَقُ اللُّغز. تمرَّغتْ حيرتُها في رمل قلبها.

في اليوم الخامس من زيارتها كهفَ الرواة، ظهرتْ ديديس بعد غيابٍ. فوجئت أنستوميس بوجود ذاتِ الجديلة الذهبية قرب العمود الذي تحفظ في تجويفه شظايا لوح أورسين. تبادلتا نظراتٍ ممحوَّةَ المعاني. تبادلتا أقنعةً بأيدي أسئلتهما الخرساء. دارت الواحدةُ حول الأُخرى. «لا أريد أن أعرف ما الذي أجْفَلك، ذلك اليوم، أيتها الهوداهوس أنستوميس، لكنني أريد أن أريك شيئاً مَّا»، قالت ديديس، فتمتمت أنستوميس: «في كهف آخر من كهوف أعماق التلال؟».

«لا»، ردت ديديس: «في كهف مهجور. إنه شيء يخصُّني. رسومٌ..».

كان ذِكْرُ الرسوم، من فم ديديس، طُعْماً أحبَّت أنستوميس مذاقه. تواعدتا على اللقاء عَصْراً في الكهف المهجور، الذي رسمت ديديس المعابرَ الثلاثةَ إليه بخطوط من إصبعها على الهواء: كهفٌ اتخذتْه حاميةٌ من الجند لإقامتها، ثلاث سنين، قبل رحيلها إلى موقع آخر. وقد استدلت عليه أنستوميس من بقايا المرصد المتهدِّم، المُشرف من التلِّ المعشب على جسرٍ ذي حبال فوق فرعٍ من نهر تومان الأزرق. جاءت وحدها، تاركةً كهف فيفلافيذي تحت إشراف سينو النحيل، ذي الشعر المنتصب كعُرف الديك. دخلتِ الكهفَ من الشرخ الضيِّق الذي هو بابُه: كُوَّة عميقةٌ في الجدار دحرجتْ شعاعاً من النُّور إلى أعماقه. أربعةُ أعمدة، وحوضٌ حجريٌّ لصق أحد الجدران ينحدر إليه، من شَقٍّ، جدولٌ رقيقٌ من الماء ذو همْسٍ بارد.

لم يكن الكهف المهجور كبيراً. دارت أنستوميس بعينيها على أرجائه مدركةً أن ديديس قد تأخرت. التمعَ نَصْلُ قرنها حين عبرت مسقطَ شعاعِ النور على أحد الأعمدة. توقفت. هزتْ جدائلها العشرين، ثم صهلت صهيلَ الإعجاب: لاحتْ على جدار من الكهف المهجور، ثلاث صور محفورةٍ بإتقان في حجره الرمادي ذي العروق الزرقاء. واحدة لأورسين مستنسخةٌ، بتمامها، عن شظية اللوح التي وهبتها أنستوميس إلى ديديس. والثانية لأورسين وقد أُضيْفَ ذيلٌ طويل إلى جسده، فوق ردفيه، كما استُبْدلتْ قدماه بحافريْن. والثالثة لأورسين، بنصفه الأعلى فقط، متَّصلاً بنصف جوادٍ، مِثْلُه مثل مخلوقات الهوداهوس.

لكنَّ ما سكب في قلب أنستوميس قطرةً من ندى المُطْلَق هو القَرْن، الذي برز مستقيماً في جبهة أورسين. ضحكت وهي تسمع وقْعَ الحوافر قادمةً إلى باب الكهف. لم تنظر إلى القادم. رفعت

صوتَها الممتلىءَ بنبرة المُمْتَدِح: «أأنتِ صنعت هذا يا ديديس؟».

وقفت ديديس إلى جوار أنستوميس. انتبهت حاكمة فيفلافيذي إلى صوت حوافر أخرى تتقدم منها. ارتعدتْ، وتراجعت حين وقعت عيناها على القادم الآخر. تماوجَ دِرعُ الوَدَع على صدرها. صهلت ديديس: «أرأيتِ روحاً بأنيابِ خنازير؟ هذا ضيف صديقنا كينوس. غريبٌ...»، لم تكمل كلماتها إذ نطق الغريبُ: «أنستوميس. لا تمرُّدَ في هايدراهوداهوس»، قال، ثم استدرك: «ماذا تفعلين هنا؟».

تلعثمت أنستوميس: «أيها الهوداهوس الأمير..».

صهلت ديديس. دارتْ من حول ثيوني مفتوحة الفم، كأنما ترسمه تفصيلاً على بلورة خيالها. «الأمير.!! لم نسمع باختفاء الأمير. لم نرَ أحداً يتقصَّى أمرَ أميرٍ ضائع»، تمتمتْ، ثم استدارت إلى أنستوميس: «ها عرفتُ ما دفعك إلى الهرب من كهف الرواة. رأيتِهِ، ذلك المساء، أيتها الهوداهوس أنستوميس».

مرَّر ثيوني راحتَه على ظهر أنستوميس ـ ظهرِ الجواد: «سأعطيك حظوةَ العودة بي إلى الكهف الأعظم، هذا المساء»، قال. حدَّق بعينين من الرغبة إلى قرنها: «أظنني حيَّرت الجميعَ باختفائي». ضحكَ: «أيُّ ذهولٍ يعتصرُهم الآن؟ ماذا يقولون، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟».

«لا شيءَ. لا ذهولَ، أيها الهوداهوس الأمير. أنتَ لم تختفِ»، قالت بنبرةٍ باردة.

وضع الأمير إصبعه على نَصْلِ قرنها. تأمَّل عينيها المرتبكتين: «خيالُكِ عابسٌ»، قال، واستدار إلى ديديس: «حدَّثتِني عن حلم كامل. جئت بي إلى هنا لترينني شيئاً. حدِّثتِني عن حُلُمٍ كاملٍ، أليس كذلك؟».

حمحمتْ ديديس ترتِّبُ صوتَها المتبعثَر: «انظرْ إلى هذا الجدار»، وأشارت إلى الرسوم الثلاثة، الغائرةِ الخطوط في الحجر. نقلَ الأميرُ بصرَه من شكل الهوداهوس الكامل إلى الشكل الثاني ذي الذيل والحافريْن، ثم أطال التحديق إلى الشكل الثالث ـ شكلِ المخلوق الواقف على ساقين، عارياً، عليه عباءة قصيرة تصل إلى ردفيه، وحول رأسه طوق رقيقَ كتاج: «من هذا المخلوق؟»، قال بصوتٍ خافت وحمحمَ. ردَّت ديديس: «تأمَّلْهُ أكثر، أيها الهوداهوس الأمير»، فعاد ثيوني يستنطق، بعينيه، خطوطَ الشكل الغامض. تمتم: «هذا مخلوقٌ خيارُهُ الخدعة».

«خُذْهُ معك»، قالت ديديس. كلماتٍ ذاتِ رائحةٍ كيُوْدِ البحر كانت كلماتُها. التفت ثيوني برأسه إليها بطيئاً. لمعتْ شفرةٌ حديدٌ في مسقطِ شعاعِ النُّورَ من الكوَّة: «خُذْ أورسيين»، حمحمتِ الأنثى ذات الجديلة الذهبية، وتراجعت.

«ماذا فعلتِ؟»، صرخت أنستوميس مذعورةً. شخرَ ثيوني فتناثر الدمُ من حنجرته المشقوقة على عباءتها وإحدى كتفيها. أمسكَ حنجرتَهُ بيدٍ، ومدَّ الأخرى إلى خنجره: «دييد ييـ..». تقطَّعتِ الحروف. دار على نَفْسه. صَدَم العمودَ الأول، فالثاني. اتَّكأ عليه برهةً يتقصَّى خيالَهُ الهاربَ، ثم انهار قريباً من حوافر أنستوميس. ارتعشت قوائمه رعشة اليأس المترقِّع عن علوم الأمل. تراخى جسده بعد تشنُّجٍ.

«ماذا فعلتِ»، صرخت أنستوميس ثانيةً بصوتٍ من رملٍ. ردت ديديس: «ما تظنين أنني

فعلتُ؟». مسحت خنجرها بطرف عباءتها، وأعادته إلى غمده: «لم يكْفِه الولاءُ المُعْلَن، فأتى يتقصَّى الولاءَ الخفيَّ. لم تكْفِهِ سلطةُ الأمير المُعْلَن، فأتى يتدرَّب على سلطَةِ المتَنكِّر. وأنا أبقيتُه متنكِّراً».

«أنتِ تدورين على خيالي بحوافر من موجٍ»، قالت أنستوميس. اقتربت منها ديْديس عابرةً مسقط شعاع النور فالتمع جلدُها الأسود النقيُّ. التمعَ ذيلُها وشعرُها الذهبيان. «أميرٌ متنكِّرٌ هو أميرٌ ميت»، قالت. «سآتي بمن يُخفيه في حفرةٍ، أو نجرُّه إلى محرقة».

«لا»، دمدمت أنستوميس. «لا أريد أن يعرف سوانا بالأمر. إنْ سُئلتِ عن الضيف الغريب لقِّقي خبراً عن عودته من حيث جاء». وضعت يدَها على درع الوَدَع فوق صدرها: «أنا سأتولى إخفاءَ ثيوني».

فتح ثيوني عينيه فجاءةً. زفرَ. صهلت أنستوميس. سلَّت ديديس خنجريها معاً. تناثرت أنفاسُهما الرمليةُ على بِرْكة الذُّعر. التصقتا. زفر ثيوني ثانيةً، ثم أطبق أجفانَهُ، في هدوءٍ ثقيلٍ، على نقوش الحقائق.

هدأت أنستوميس وديديس. هدأ صخبُ الحجر في رسوم أورسين.

الصهيل

تسع حمامات حطَّت فوق ظهر الأمير، وهو جالس تحت قبَّة من الحجر الأزرق، في الحديقة الكبرى ـ حديقة التيجان المحمولة على أعناق النحام الحجريِّ. فكَّ بيْتُو، عميدُ الحرسِ ذو الشاربين الأبيضين، الرسائلَ عن سيقان الحمام الرقيقة، وقدَّمها مفتوحة، واحدةً تلو الأخرى، إلى الأمير، الذي استعرض سطورَها الرسومَ، ووضعها، من ثمَّ، بين يدي أنيكساميدا.

«هذه رسالةٌ ضلَّتْ طريقَها»، قالت الأميرةُ حين مرَّت الرسالةُ الخامسةُ من يد ثيوني ـ آزينون إلى يدها. «أية حمامة كانت الرسولة؟»، سألتْ بينو، فطوَّق بينو ذو الخوذة حمامةً براحتيه، في رفقٍ، وقرَّبها من أنيكساميدا. «هذه من حمامات كهف فيفلافيذي» قالت، وتأمَّلت الرسمَ على ورقة البُردي ـ رسمَ مخلوق من الهوداهوس له رأس تيس بقرنين ملتويين. مالت برأسها إلى الأمير هامسةً: «بات البريد المُرْسل إلى أنستوميس يصل إليك». فهمس الأمير، بدوره، إليها: «سأحمل بريدها، وحمامتها، إليها».

«ألم تتعلَّم، بعد، أن تكون أميراً؟ لا تلمسني بذيلك»، قالت أنيكساميدا بصوتٍ خافت، فأوقف آزينون حركة ذيله.

في المساء الصاخب، الذي تساقط قطرةً قطرة، كشحم البط المشوي، فوق جمر الأناشيد المحمومة، وجمر الحناجر الهاذية بالغناء، قدَّمت أنيكساميدا الرسالة إلى أنستوميس. مرت قربها، بين حشد الأعيان وزوجاتهم: «حمامتُك ضلَّت طريقَها. هذه لك من رسَّامي هايدراهوداهوس الكسولين»، قالت.

«الحمامُ يشيخ»، ردت أنستوميس. ابتسمت الأميرة. همست: «إبقي قُربي في هذا الحفل، أيتها الهوداهوس أنستوميس».

لم تستطع أنيكساميدا أن تؤجِّل قدومَ الخاطبين السبعة، الطالبين حظوةَ مصاهرةِ أمير الكهف

الأعظم، أكثر من عشرة أيام. أبناءُ أعيانٍ أقوياء في إدارة شؤون هايدراهوداهوس أوفدوا الرُّسَلَ مع كلماتٍ يتقرَّبون بها إلى بِكْرِ بنات ثيوني. طلبوا تحديد موعد لعرض خطاباتهم بين يدي الأمير والأميرة. وكانت المراوغةُ في تحديد لقاءٍ بهم سيُعدُّ إهانةً. وُهبُوا الإذنَ بالحضور، فحضروا.

سبعة خطباء شبان حضروا مصحوبين بأناشيد التوسُّل إلى اللون أن ينسكب عَذْباً في جلود نَسْلهم. وقد تعاقبوا، واحداً واحداً، على إلقاءِ ما كتبه خيالُ المُدرَّبيْن على هياج الكلماتِ، فاعتصروا المعاني الناضجة كعافية السهول، وقدَّموها إلى تاروس العذراء، ابنة ثيوني، في كؤوسٍ من توريات قلوبهم.

كانت تاروس جالسةً على مصطبة، وسط الواقفين جميعاً، متلألئةً في نعمة زينتها المختارة وقْقَ بهاءِ جلدها الأبلق كأُمها. تُصغي، وتزِنُ أشكالَ الخطباء بميزان الرغبة النبيلة: «سأعطيكِ الغمدَ الذي يجعل خنجرَك عقلاً»، قال الأول. اقترب منها. انحنى، وتراجع.

«أنتِ قادرة، أيتها الهوداهوس الأميرة، أن تسرقي مكاناً يستقرُّ فيه أميرٌ حاضرٌ غائب»، قالت أنستوميس للأميرة من وراء كتفها، بصوتٍ خافت. لم تلتفت أنيكساميدا. هزت رأسَها ذا الجدائل الستِّ. مالت بعنقها قليلاً صوب أنستوميس: «الأمكنةُ لنا، فلماذا نسرقُها؟».

«المكانُ مُلْكُ ذاته»، ردت أنستوميس.

تقدَّم الخطيبُ الثاني من تاروس: «سأعطيكِ ما يعطيه الماءُ ـ رغبَتهُ وخيالَه»، قال، ثم تراجعَ.

«أتعبثين بالكلمات، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟ هذا المساءُ الصاخبُ مُلْكُ الكلمات»، قالت الأميرة، فردت أنستوميس: «العبثُ بالكلمات عبثٌ بأقدار هايدراهوداهوس. ما أراد لساني الممتنُّ لصداقتكِ نَسْجَهُ هو أن يتواطأ مع فكرتكِ أنتِ عن الكلمات».

اقترب الخطيبُ الثالث من تاروس العذراء: «سأعطيكِ سهرَ قلبي على قلبكِ، وسهرَ يقظتي على يقظتكِ»، قال، ثم تراجعَ.

«ما فكرتي عن الكلمات؟ أنتِ تروِّضين علومي»، قالت أنيكساميدا، فردت أنستوميس: «بل أنتِ القادرةُ على ترويض علومي، بإعادة الحقيقة إلى المتاهة».

اقترب الخطيبُ الرابع من تاروس: «سأعطيكِ حنينَ البذرة إلى الثمرة، وسأسرد عليكِ لُغزَ الثمرة الحالمة»، قال. انحنى، وتراجعَ.

«ما المتاهةُ، أيتها الهوداهوس أنستوميس؟»، قالت الأميرةُ وقد التفتت إلى حاكمة فيفلافيذي. فردت أنستوميس: «الأمير».

اقترب الخطيبُ الخامس من تاروس: «سأعطيكِ كمالَ ما لا يكتمل إلا بكِ، نَفَساً نَفَساً»، قال. انحنى، وتراجعَ.

«أنتِ هبوبُ المجهول عليَّ هذا المساء»، قالت أنيكساميدا. مرَّرت إصبعَها، في حنوٍّ، على قرن أنستوميس: «انظري إلى الأمير. أيشبه متاهةً؟». مدَّت أنستوميس عنقها لترى ثيوني ـ آزينون من وراء رأس الأميرة: «نعم. أميرٌ حاضرٌ غائبٌ يشبه متاهةً».

اقترب الخطيب السادس من تاروس المُنتصِرَةِ الزينة: «سأعطيكِ الوعْدَ الذي به، وحده، يكونُ النهارُ حِصنَ الليل، والليلُ حِصنَ النهار». انحنى، وتراجع.

«يا حاكمة الرسوم..»، قالت أنيكساميدا متعجِّبةً، فحاصرتْها أنستوميس بلسانِ هبوبها على خيال الأميرة: «لا أحدَ يحكم الرسوم».

اقترب الخطيبُ السابع من تاروس المُمَرَّغةِ في جَمَالها: «سأنثر في حقلِ ظلِّكِ بذورَ ظليٍّ، وظلِّ أبي، وظلِّ أمي». انحنى، وتراجع.

«أعيديني إليك، ايتها الهوداهوس أنستوميس. لقد ضللتُ»، همست أنيكساميدا. ردت أنستوميس: «أنت معي». ألصقت جنبَها بجنبِ الأميرة: «أتأتين إلى فيفلافيذي غداً، وحدك، أيتها الهوداهوس الأميرة؟ سنتحقَّق ـ أنتِ وأنا ـ من علامات الخروج من المتاهة».

«فيمَ همسُكما. أتعلنان حرباً على اللون باسم اللون، أيتها البهيَّتان؟»، قال الأمير. طغى على صوته نهوضُ تاروس عن المصطبة، وهي تقرع بحوافرها المطلية بصبغة الذهب على الرخام: «سمعتُ ما يخلبُ القلبَ. أنا دائخةٌ من سروري. سأستعيد مراراً، طوالَ ليليَ، ما قلتموه. عصرَ غدٍ أختارُ من يتمِّم لي نصفَ حلمي، وأتمِّم له نصفَ حلمه».

لم تنم تاروس تلك الليلة. أغفت في الصباح من وطأةِ النعاس على وقْعِ حوافر أمها مبتعدةً عن مخدعها، وهي تلقي كلماتٍ عَسَلاً على رغيفِ غفوتها: «فَلْيملأْ صدى حوافر نَسْلِك ممراتِ الكهف الأعظم، يا حمامة الحمامات، أيتها العذراء تاروس ـ ابنتي».

كانت أنيكساميدا في طريقها إلى أنستوميس، مع مزيِّنتيْها الأختين سافينوس، وروسينا، البيضاوين، وثلاثة من الأتباعِ الحرس، الذين أبقتهم في مدخل بهو فيفلافيذي، وأكملت ـ وحدها ـ عبورَ جسدها ـ عبر الأعمدة، إلى القبَّة الحجرية، وسط الكهف، حيث تدير أنستوميس شؤونَ عالمها. رأتها أنستوميس المجتمعة مع بعض المرمِّمين. تركتهم ومشت صوبها. التقتا. «يلزمنا مرمِّمون أكثر، أيتها الهوداهوس الأميرة. خيالُ الجدران يتسع، يوماً بعد آخر، في هذا الكهف. تكثر الرسومُ، ويكثر الزائرون»، قالت، فردت الأميرة وهي تحاول العثور على سطرٍ تقرؤه في عينيْ أنستوميس: «سيكون لكِ ما تحتاجينه. لماذا جئت بي إلى فيفلافيذي؟».

«لأستغلَّ حكمتَكِ»، ردت أنستوميس. هزَّت أنيكساميدا رأسَها: «تجعلينني مضطربةً»، فهزَّت أنستوميس رأسَها أيضاً: «نعم. لأنني مضطربة». ودارت بعينيها صوبَ حاشية الأميرة: «ظننتُ أنْ ستأتين وحدك». تلفتت الأميرةُ حولها: «لا يسمعنا أحد».

«كنتُ سآخذك إلى مكان آخر. أيتها الهوداهوس الأميرة»، قالت أنستوميس. ردت الأميرةُ: «خذيني. سيبقون هنا». تنفَّستْ خفقاتِ الهواءِ المحموم: «إلى أين ستأخذينني؟». قرَّبت أنستوميس قرنَها من وجه أنيكساميدا: «سآخذكِ إلى امتحانٍ، الخطأُ فيه إنقاذٌ لهايدراهوداهوس، والصوابُ تحطيمٌ».

قادتْ أنستوميس خطواتِ أنيكساميدا إلى الكهف المهجور. حين جاورتا المرصد المتهدِّم توقَّفت حاكمةُ فيفلافيذي: «انظري إليَّ، أيتها الهوداهوس الأميرة. قلبي يتبعثر في كل خطوةٍ، ويتجمَّع في كل خطوة. الصاعقةُ، التي ستهوي عليك ـ إنْ هَوَتْ ـ ستحْرُقُ صدري أوَّلاً». لم تنطق أنيكساميدا. تثاقلتْ سيقانُها. مشت أنيكساميدا خطواتٍ. توقفت من جديد: «ماذا لو تمرَّدت هايداراهوداهوس؟».

«لا أفهمك:، ردت أنيكساميدا. «لا أشمُّ تمرداً في هايدراهوداهوس». أمسكتْ أنستوميس بيد الأميرة، ورفعتها إلى قرنها. «اجعليني أرتعد إن ارتعدتْ يدُك». تنفَّست بعمقٍ. «ماذا لو قتلَ الأمير؟»، قالت. صهلت أنيكساميدا صهيلاً ممزَّقاً. تدحرجَ صوتُها كرملٍ على لسانها «لا تقطعي، في كل خطوةٍ، قطعةً مني. جرِّبي قلبي ـ قلبَ أميرة الكهف الأعظم، دفعةً واحدةً، أيتها الهوداهوس

أنستوميس».

دخلتا الكهفَ المهجور: كان العمود الثالث يحجب نصف الجثة. دارت أنستوميس من جهة، ودارت أنيكساميدا من جهة. تواجهتا خلف العمود. ركعتْ أنستوميس إلى جوار القتيل الذي غُطِّيَ وجهُهُ بعباءته. رفعتِ العباءةَ. انهارت أنيكساميدا كأنما بُتِرَتْ حوافرُها. نظراتُها ظلت خرساء. لسانُها ظلَّ أخرسَ. ضربت براحة يدها اليسرى على صدرها، ولمست بالأخرى شعرَ ثيوني. «تبدو ضجِراً»، همست، ثم صهلتْ صهيلاً موحشاً. «تبدو ضَجِراً». رمى الألمُ بالنَّرْد من عظامها إلى عَصَب روحها. «ربما إنْ تمرَّدتْ هايدراهوداهوس، الآن، تلاشى ضجرُك يا زوجي ثيوني».

«الأميرُ هناك، في الكهف الأعظم. لن يتمرَّد أحد، أيتها الهوداهوس الأميرة»، قالت أنستوميس. تجمَّع لسانُ خيال أنيكساميدا المتبعثرُ: «من فعل هذا؟».

«أيهمُّ، الآنَ، أن تعرفي من فعل هذا؟. انظري إليه. اسأليه»، قالت أنستوميس. حمحمتْ. «لن يعرف أحد بالأمر:.

«كيف اهتديتِ إليه، هنا؟»، سألتها الأميرة.

«قادني وحيُ اللون»، ردت أنستوميس. كررت كلماتها: :لا يعرف أحد بالأمر».

«لن أسألك، أيتها الهوداهوس أنستوميس، عن النقش الذي تحفرينه على حجر علْمِكِ بهذا كلِّه. لكن، أتظنين أن نقل جثمان الأمير إلى أخدود تاييس سيتمُّ من غير أن يعلم أحدٌ؟!!»، قالت أنيكساميدا مستغربةً.

«لا. لن يُنْقَل جثمانُه، أيتها الهوداهوس الأميرة. خُذي جانبَ الخطأ. درِّبي الخطأ، في هذا الكهف، أن يكون صواباً. الصوابُ، الذي تظنِّينه صواباً، سيحطِّم أعمدةَ الكهف الأعظم»، قالت أنستوميس. حمحمت أنيكساميدا. قالت بصوتٍ مهزوم: «كلماتك تضللني. أعيديني إليَّ». ردت أنستوميس: «أعطيني، أيتها الهوداهوس الأميرة، عمَّالاً. سأبني جداراً على باب هذا الكهف من خارجه. لن أدع أحداً يتخطَّى العتبة. لن يعرف أحد. عندك أميرٌ حيٌّ في الكهف الأعظم».

«آزينون. عندي آزينون هناك»، قالت أنيكساميدا. مالت أنستوميس عليها. أمسكت بيديها تُعينُها على النهوض: «ستصنعين من آزينون الأميرَ الذي يفصِّل من ظلكِ، أنتِ، عباءاتِ أيامه».

نهضت أنيكساميدا. ألقتْ على ثيوني نظراتِ خيالها التسع. تمتمت: «أنتِ تستهوينَ آزينون». شدت أنستوميس على يديها: «سيشرب من يديك هوى حقيقته الجديدة. لن يستهويه إلاَّ ما يستهويك، أيتها الهوداهوس الأميرة».

«هناك من يعرف بأمره، ايتها الهوداهوس أنستوميس. أكسيانوس، كيدرومي، والفلكيُّ ميدراس، الذي جاء بآزينون»، قالت الأميرة.

«لا أحد يعرف بأمره، أيتها الهوداهوس الأميرة»، قالت أنستوميس بصوت الحِيلة. تدحرجتْ خرزةُ الحِيلة من لسان أنستوميس إلى قلب أنيكساميدا، التي أطلقت أنيناً ممدوداً.

ستةٌ وثلاثون عاملاً، من أولئك المُدرَّبين عَصَباً عَصَباً على إشارات البنَّائين، سدُّوا بابَ الكهف، بإشراف أنستوميس. سدَّ ثيوني القتيلُ بوَّابةَ حقول اللون المترامية بلا نهاية، على خياله المُهشَّم. تأمَّلَ نَفْسَه في البلورة، التي قدَّمها إليه أورسين بيدين حجريتين.

ستة وثلاثون محارباً، مقنَّعيْن بأقنعةٍ مرتجلةِ الصُّنْع من أوراق الذُّرة، خرجوا من دغْلِ القصب، الذي يخترقُه الطريقُ من الكهف الأعظم إلى كهف الطواحين. انقضُّوا، كسهامٍ من ظلٍّ، على موكب الكاهن كيدرومي وأكسيانوس. شقَّت شفراتُ خناجرهم، بلمساتٍ لها بلاغةُ الريش، الحناجرَ الأربع عشرة، قبل أن يتمكن أحد من رفْع بوق الإنذار إلى فمه. أُغميَ على الهواء. أُغميَ على القصب.

تراجع الستة والثلاثون إلى أعماق الدغل. «خُذي هذا إلى أنستوميس، أيتها الهوداهوس ديديس»، قال أحدهم، ووضع شيئاً في يدها.

«ما هذا، أيها الهوداهوس نيسيانو؟»، ساءلته ذاتُ الجديلة الذهبية وهي ترفع قناعَ ورق القصب عن وجهها، فردَّ المحارب الكهل: «شاربا كيدرومي، المفتولان بشمع العسل الجبليِّ».

غبار الشُّعراء

«أيتها الريحُ الفتيَّةُ، الممشَّطةُ بأمشاط الحقائق الفتيَّة؛ يا همْسَ اللَّون للون. أيتها الريح النَّقشُ على عقل هايدراهوداهوس، يا بصرَ السهول. أعينيني لأُعيْنَكِ. وحيدةٌ أنتِ. بي لن تكوني وحيدةً. وسِّعي السهولَ. ضيِّقي السهولَ. حرَّةً تكونين إن ناديتُكِ بأسماءِ المفاتيح. مغلولةً تكونين إنْ ناديتُكِ بأسماء الأغلال. ستترعرعين معي. ستكبرين معي. ستهرمين معي. سأحلم نصفَ حلمكِ، وستحلمين نصفَ حلمي، أيتها الريح». هكذا تكلَّم الكاهن الشاب جُوْتامُو، الأصفر الجلد، الذي اختارَه حكماءُ مجلس الطواحين، ذوو الجلود الدَّاكنة الخُضرة، خَلَفاً لكيدرومي، المنتصبِ الجثة ـ بلا شاربين ـ في أخدود تاييس. تململت الفهودُ التسعة المحيطة به، في أزمَّتها، التي يمسك بها ريسمو- أخو تيتونا؛ وكينوس، التابع الجديد للكاهن الجديد.

حملتِ الريحُ نجوى جونامُو، من أعلى هضبة كهف الطواحين، إلى تخوم حلبة سباق الشعراء، ذلك اليوم المعدود من نهايات الربيع. تنفَّست تاروس الهواءَ برئتين عاشقتين، وهي تميل برأسها إلى كتف زوجها، فوق المصطبة الحجرية المديدة، التي توسطتها الأميرةُ وصديقاتها، جالساتٍ، تحيط بهنَّ الوصيفاتُ، وهنَّ يراهنَّ ـ بسلال صغيرة من الكَسْتَنة المشوية ـ على من سيربح الشَّوْطَ الثاني.

ارتفع صهيلٌ قويٌّ من حناجرهنَّ حين عبرَ الأمير راكضاً. حمحمت ديديس، الواقفة إلى جوار أنستوميس، خلف حلقة الأميرة وصديقاتها: «لن توافقَ الكواكبُ حدواتِه. لن يربح الأمير. كان على فلكيِّ الكهف الأعظم أن يُنْبئه، ويثْنيْه»، قالت. ضربت أنستوميس جنبها بذيلها: «لدينا فلكيٌّ جديد يتقصى حِيَل الكواكب باسطَرلابه، الآن، وهو لا يقول للأمير إلاَّ ما تقوله الأفلاك. ميدراس نَفْسُه لم يكن ليفعل شيئاً لو ظلَّ هنا. أمرٌ جديدٌ أن يشترك الأميرُ في سباق الشعراء». ألقت ببصرها إلى البعيد الأبعد تتقصَّى، في شفق اللامرئيِّ، مسيرةَ ميدراس إلى إمارة بحر لاليْنْ ـ بحرِ النجوم المرصوفةِ أربعةَ سطور في لوح المياه، كي يدوِّن علومَ الأفلاك الجامحةِ، والمروَّضة، من المراصد العالية، فوق جبال الجُزُر.

«انظري إليها»، قالت ديديس محدِّقةً إلى الأميرة: «لماذا لاتُسلِّمينها إلى أورسين، ليأخذها إلى أميرها المتنكِّر؟».

قرَصَتْها أنستوميس على دعابتها الملأى بأشباح الكَيْد. ضحكت ديديس: «كلَّما مرَّ الأمير أمام المصطبة التهَمكِ، أيتها الهوداهوس أنستوميس. استدرجيه كي يجرَّ الكهف الأعظم إلى كهف

فيفلافيذي. حوافرُه قوِّيةٌ الآن»، قالت، فضربتها أنستوميس بذيلها: «ما خيالُكِ اليوم، أيتها الهوداهوس ديديس؟ أنتِ تقشِّرين هايدراهوداهوس كعرناس الذُّرة».

ارتفع صهيلٌ هائل من جنبات الحلبة. ضحكت ديديس: «أنت وأورسين ستقشِّران سماءَ هايدراهوداهوس كحبّةِ الكَسْتَنَة تلك، التي تأكلها الأميرة»، قالت، وضربت بذيلها، في مَرَح، ردفَ أنستوميس. تأوَّهت أنستوميس: «ذيلُك صلبٌ»، قالت، ثم نظرت إلى ذيل ديديس المزين بمنظوماتٍ من خرز أخضر وبنيٍّ تتدلى خيوطاً. لمحتْ خُصَلاً من شعرٍ مفتولٍ تتدلى بدورها بين شعر ذيلها: «مَن المزيِّنةُ التي أوحتْ إليك بهذا الابتكار الظريف؟».

قرَّبت ديديس رأسَها من رأس أنستوميس. همست: «الكاهن كيدرومي أوحى إليَّ. إنها خُصَلٌ من شاربيه».

اندفع سيلٌ من الغبار خلف الشعراء الراكضين في الحلبة يلقون أشعاراً مختنقةً من حناجرهم الهاذية، وتصادمت أصداءُ الحدوات المدرَّبةِ على ابتكار رنينها.

٢٠٠٣ / ٢٠٠٤
سكوغوس / السويد